محمد ديب

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

النول



روايات الهلال

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

No. 264 — December 1970

العدد ٢٦٤ – ديسمبر ١٩٧٠ – شوال ١٣٩٠

رئيس مجلس الإدارة : **أحمد بهاء الدين**

رئيس التحرير : **رجاء النقاش**

بيانات ادارية

ثمن العدد : في الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم – عن الكميات المرسلة بالطائرة – في سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، في الاردن والعراق ١٣٠ فلسا

قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عددا » في الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادي البريد العربي والافريقي ١٠٠ قرش صاغ – في سائر انحاء العالم ٥ ونصف دولارات أو [illegible] شلنا والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . في الخارج بتحويل أو بشيك مصرفي قابل الصرف في « ج.ع.م » – والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادي – وتضاف رسوم البريد الجوي والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب – القاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ عشرة « خطوط »

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة
الفنان هبة عنايت

النول

بقلم

محمد ديب

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

دار الهلال

الجزء الأول

- ١ -

اطار عمر السيتارة التى تسد مدخل الغرفة بظهر يده ، ودخل ، ولكنه ما ان اجتاز العتبة حتى توقف لايجرؤ على التقدم . وظل جامدا فى مكانه تهزه الرعشة ، كان يحس أن مزقا من الليل قطعتها الامطار لاتزال فى قرارة عينيه . ان ثيابه المتهدلة عليه تبدو مبللة ، ونعلاه المنقوعتان الرخوتان تطبعان على سدةالباب رسوما واسعة وحلة .

انتقلت نظراته من امه الى أختيه . كانت اختاه ترمقانه فى عبوس يسمن وجهيهما . كانت امه تحتل ركنها المألوف ، وقد تهدل على عينيها منديل عتيق مهترىء . انها تبدو غارقة فى أحلام عميقة . وكانت الجدران العارية المطلية بالكلس تلتمع تحت اشعة نور الكهرباء

فلما راته ، نهضت بوثبة واحدة ، وأخذت تهز قبضة يدها قائلة :

ـ ما ابنى هذا ، بل كلب من كلاب الشوارع .

كان واضحا أنها قد فصمت لجامها ، ولبث عمر ينظر اليها وهى تصرخ صراخا ما ينفك فى اشتداد :

ـ نعم ، كلب من كلاب الشوارع ، كلب من كلاب الشوارع .

ودفعت حوافى منديلها التى تزعجها ، وتابعت تقول :

ـ أين كنت الى هذه الساعة ؟ أين ؟ أين ؟ قل لى ٠٠ هاى هاى ٠٠ أوَمزق وجهك أم امزق وجهى ؟ لقد نبت فيـك ريش الشر ٠٠ أتظن انك أصبحت رجلا ؟ أتظن ان كل شيء قد أصبح مباحا لك ؟ يمينا لن يكون هذا .. لاتزال بى قوى تكفى لتحطيمك .. أنا هنا الآمرة الناهية ، وستظل خافضا راسك ما احتجت الى البقاء تحت هذا السقف . هل فهمت ؟ اما ان تعود الى البيت فى وقت مبكر ، واما ان ترجع الى الشارع .

لم يكن الفتى يلاحظ قطرات الماء التى تسقط من ثيابه وتشكل بركة عند قدميه . كان قلبه يخفق خفقانا سريعا . ترك لامه أن تفرغ كل ما فى صدرها من كلام . ليس هذا كله جديدا .

وقالت الام آخر الامر منذرة

ـ لسوف تسلم بالاقلاع عن تلك الحياة التى تعيشها .

كان عمر يمضى فى كل مساء يجمع بعض نثارة الفحم حول المحطة بين سكك الحديد . هذه هى السبيل الوحيدة الى قليل من الوفود فى البيت .

ونض عنه حقيبته دون أن ينبس بكلمة . انه لايرغب الا فى شىء واحد : ان يدفىء يديه المتجلدتين .

وتذكر عالم الليل الواسع الذى انبجس منه . كان الليل قد خيم منذ مدة طويلة ، وكان المطر ينهمر ، ينهمر مدرارا .

وعادت الام الى مكانها ، وامرت ابنتها عيوشة ان تضع المائدة ، فقامت الفتاة ، فأتت بالمائدة ، ووضعت عليها قدرا ونصف رغيف من خبز أسود . وأخذ الاربعة يغمسون أصابعهم فى المرق صامتين ؛ فما هى الا لحظات حتى كانوا قد التهموا عشاءهم ، وهو فجل مطبوخ بأمعاء ، فتولت الاختان رفع المائدة

ورقدوا بعد قليل :

لايستطيع أحد أن يقول منذ متى غرقت الحجرة فى الظلام الدامس . لقد تخدر عمر ولكن النوم لم يجد الى جفنيه سبيلا . لاشك أن وقتا طويلا قد انقضى على هـذه الحال . كان البرد ينفـذ فى جسـمه كالسكين ، فيبقيه نصف يقظان . وفى رأسه كان يهدر سيل من الصور .

ها هم أولاء مرتلو القرآن يسيرون امام جنازة . كان عمر يمشى فى اثرهم مؤمنا بأن كل خطوة يخطوها وراء حملة النعش تسر الميت . ان الموتى فى هذه الايام كثر . وعمر لايفوت من الجنائز الا تلك التى يصادفها أثناء جولاته البعيدة . انه يشعر نحو كل واحد من هؤلاء الموتى بشىء من عطف .

وكان قد حفظ فقرات من نهج البردة ، فهو يتلوها مترحما على أرواحهم .

وها هم أولاء المتسولون الشاحبون المهزولون يستحثون الخطا تحت المطر المنهمر . وهذه صور أخرى تجتاز ذهنه أيضا . لقد قالت له عينى منذ أكثر من سنة : « تعلم مهنة من المهن ، فلن تجديك كتبك نفعا » . كان ذلك فى نهاية الصيف الذى سبق الصيف الماضى . كانت عطلة الصيف قد انتهت . فأذعن الفتى لرأى أمه ، ولم تدس قدماه المدرسة منذ ذلك الحين . لقد طالما رددت أمه على مسامعه انه أصبح فى الثالثة عشرة من عمره ، وأن كل ساعة من تعطل فهى وقت ضائع . وكانت تضيف الى ذلك قولها : « لقد صبرت كثيرا » .

ومن كثرة ما سخنت أذناه من اللوم والتقريع ، بدأ يعمل صبياً فى دكان أحد البقالين ، ولكن السلطات لم تلبث ان أغلقت الدكان ، وزجت بصاحبه فى السجن .

لقد صاحت يومئذ عينى تقول : « يعاقبون صغار المتلاعبين ، ويتركون كبارهم ... » .

وكان لابد من البحث عن عمل آخر للفتى . ولكن سنة برمتها قد انقضت دون ان يعلق بالصنارة شيء . ليس عمر الآن الا صبياً معترا ، يتسكع فى الشوارع ، لا يلجمه لجام ، ولا يبالى الوقت ، ولا يكترث للجو ، ولا يحفل بتقريع أمه ...

أصغى عمر الى الاهتزاز الذى يزعزع البيت . الليل يهدر هديراً قوياً . والمطر لايزال يهطل . ووراء هذه الهمهمة يقصف الرعد ، فكلما شق السماء مرة ، تزلزل البيت ، فتراءى للمرء أنه متداع متى قصف الرعد مرة أخرى .

احس عمر فجأة ان هناك شيئا يتربص فى الظلمات . شعر من ذلك بقلق . وذكره هذا بأمه التى تشم الشقاء فى كل شيء ، وتكتشفه بحدسها الممزق فى كل شيء .

قال لنفسه : « مابال أمى التى ترى العالم مشحونا بنذر السوء ودواعى التطير (اذ تؤول كلمة عارضة ، أو حكة فى الاذن أو رائحة خفيفة فى الجو ، على مايشاء لها الهامها) مابال أمى لاتنتبه الا الى علائم الشر وما يمثل الكوارث ؟ » .

فما كاد يكمل تمتمة هذه الكلمات حتى انتصبت أمه واقفة قربه . قال يتوسل اليها قلقا : « أرجوك يا أماه » . واستيقظ . يا للحنان الذى ظهر فى قوله : ارجوك يا أماه . ما كان لعمر أن يصدق أن من الممكن أن يظهر فى كلامه هذا الحنان . كانت الكلمة تهتز فى نفسه بقوة تهوله .

أصبح الآن لا يأمل أن يعاوده النوم . وكان قد ارتفع صوت آخر فى ظلام الليل يقول :

« لاتخافى يا أماه ، أضرع اليك .. أنا أعرف ان هذا الخوف يطوف طائفه فى النفس أحيانا . أنت تسمينه القدر . ولقد طاف بنفسك منذ لحظة على كل حال . شعرت به من الحزن الذى استولى عليك . ابتهل اليك يا أماه أن تعرفى أن هذه القوة لا وجود لها ، وأن الحياة ليست جحوداً . لاتكفرى بما فى نفسى باسم ماتحملينه من عاطفة الامومة » .

هل التوسل هو الذى يمكن أن يلين ارادة عينى ؟ لم يستطع عمر ان يمتنع عن ترديد هذا التساؤل على نفسه . وكانت حدود الغرفة تتراجع امام عينيه ، بينما أشتات أفكار اخرى تطير من رأسه .. عصافير مبعثرة تهوم الى غير نهاية ، خفيفة خفيفة ، ليس لريشها وزن .. وكانت العصافير تمحى بدورها ، وتجرى على جسمه ظلالا متهربة ...

لقد اخذته سنة من نوم . وكان دوى العاصفة يغنى فى فضاء الليل . كان المطر يهدر بغير انقطاع ، وكانت رياح شديدة بعيدة تهز أركان المدينة . وفجاة خيل اليه انه يسمع .. انتفض قلبه . لاشىء . لقد انقطع المطر . وخيم على دار سبيطار هدوء لاتعكره نسمة . ان الهواء يحمل برودة رطبة ، شعر الصبى بانفاسها تتسلل الى الحجرة من تحت الباب . عاد الى الصبى وعيه ، فتذكر أن عينى وبنتيها يرقدن جنبا الى جنب قربه ، فوق فرش القش الممدودة على الارض . كان عمر ، الراقد على مقربة من امه ، يتلقى منها بعض حرارة . رد اليه هذا شيئا من الثقة . ونام من جديد

- ٢ -

كان بخار متموج قد انبجس من الارض ، فسرعان ماسد جميع الطرق . سكنت الريح وانقطع المطر .

لقد احتضن الضباب المدينة طوال الليل ، حتى اذا طلع النهار فى غد ، كانت شمس فتية تسطع فى سماء كانون الثانى . انهـــا تلعق الشوارع . العربات تجرى على الارض صاخبة . واغان تنبـــع من حوانيت الخشب . ان كل شيء يبدو منغما ، حتى النداء الابح الذى يخرج من صدور الباعة المتجولين

ما من شيء كان يدع للمرء أن يتنبأ بعذوبة كهذه العذوبة الفجة . لقد نبت هذا الانتعاش الفرح فى عالم أسود . ترى هل عزم الشتاء على أن يهجر سرباله الثقيـــل ؟ هذا هو الشتاء الثالث بعـــد اعلان الحرب . ان الامل فى أيام أفضل وأعدل قد هدهد أهل تلمسان .

وفى هذه الاثناء انما اصبح الناس يلتقون بأولئك الاشخاص الذين يشبهون أن يكونوا أشباحا مخيفة . ان هذا الجمهـــور من الرجال والنســاء والشيوخ والاطفال يجتاح جميع الاحياء شيئا بعد شيء . ان أكثرهم من اصحاء الابدان الذين ليس بهم آفة . وكان هـــؤلاء البؤساء التائهون لا يحسون نظرات الســـوء التى تمتلىء بها أعين السكان عند مرآهم كان جوابهم على المعاملة الخشنة التى يستقبلهم بها الناس ، ويلاحقهم بها رجال الشرطة ، هو ألا يحلفوا ولا يبالوا . ان قوة يجهل المرء شدتها تدفعهم الى امام .

كذلك انتشروا هذا الانتشار المحروم من الحياة حرمانا غريبا ؛ انتشروا فى تردد ، وفى عياء وكلال

تساءل الناس : اليسوا يتدفقون منذ مدة من الوقت ؟ ان الشوارع الكبرى والطرق العريضة والميادين تفيض بهم . لا شك فى أنهم تسربوا الى المدينة بفضل الايام الماطرة الماضية !

لم يعرف أحد فى ذلك الوقت ما الذى كان يجذبهم الى المدينة ! . أتراهم جاءوا يلتمسون ما قد يسد رمقهم ؟ . ولكنهم اذا فرضنا أنهم وجدوه ، لا يغيبون ولا يعودون الى الكهوف التى لفظتهم . انهـــم يلتصقون بقلب المدينة . لذلك كان الناس لا يفهمون من الامر شيئا .

آكان يحدوهم نوع من حب الاطلاع ؟ لا .. ذلك انهم كانوا ، حين يفدون ، لا يزيدون على أن يستقروا حيث يتراءى لهم ، ثم ينظرون الى كل شيء بعيون منطفئة .

على أن هؤلاء المتسولين كانوا اناسا رقاقا لا يسيئون الى احد يجب أن نعترف بأنهم لا يحدثون شيئا من اذى . انهم ينظرون الى الكبار والصغار الذين يمرون بهم ، فى هدوء بغير اكتراث . انهم ينتظرون . ولكن ماذا ينتظرون ؟ لا يعلم احد ذلك . ثم يستأنفون طوافهم فى الارض على غير هدى . وينامون فى المكان الذى يفاجئهم فيه هبوط الليل . فاذا هبت ريح شديدة شدوا أسمالهم الرثة على اجسامهم ، ووضعوا جماجمهم على حجر او درجة ، وناموا .

اصبح الناس يلتقون بجموع متزايدة منهم ، فى الطرق الممدودة ، وتحت الافاريز ، وحول المتاريس ، أمام الحمامات العامة ، وعلى سلالم السوق المسقوفة ، وعند أسوار « مشوار » التركية ، وقدام أروقة الخانات ، كانت شخوصهم المتفككة ، السمراء ، الوسخة ، تتسكع فى جميع الشوارع . انهم يجرون أنفسهم فى كل مكان . وكان بعضهم يحمل على الظهور بعضا آخر أصبح عاجزا عن مواصلة السير . حتى اذا قطعوا بهم بضع خطوات جلسوا على الارصفة لاهثين . كانت المخازن لا تضم فى واجهاتها الا أشياء لا فائدة لهم منها . ومع ذلك ، فهنالك انما كانوا يستقرون وينطفئون انطفاء الشعل الشاحبة .

وكان يحس المرء من حين الى حين أنهم يبحثون عن شيء . ان حركاتهم أشبه بحركات زحف لا يدرك . ثم لا يلبثون ان يعودوا الى سكونهم . انهم لا يمدون جميعا أيديهم . وما لم يتعرض لهم أحد سكان المدينة بسوء ، فيضطرهم الى التزحزح ، فانهم يظلون قابعين فى مكانهم ، متجمعين على انفسهم ، يرمقون بأبصارهم جموع الناس وهم يتنقلون .

وكان بعضهم يظل نائما بغير انقطاع ، متلففا كالقنفذ ، فاذا اراد احد أن يحسن اليه كان لابد له أن يميل عليه ليدس له القرش فى راحة يده . ان هؤلاء المتسولين الجدد لا يسمع احد أصواتهم . من هذه الناحية ، طرأ اذن شيء من تبدل .

اتراهم كانوا يجيئون من الضواحى المحرومة الفقيرة ؟

ربما .. كانوا يجمعون بضعة دريهمات ، أو بعض قشامات الطعام ، من مجرد ارتياد المدينة . ولكن لماذا كانوا لا يعودون بعد

ذلك ؟ ما بالهم يتشبثون بالمدينة كأنهم ملتصقون بهذه المبانى التصاقا لا فكاك منه ؟

وسرعان ما أصبح اى حاجز من الحواجز عاجزا عن صد هذه الاندفاعة القوية التى تقود هؤلاء القوم الى أكثر الاحياء حشمة ، والى الشوارع التجارية ، والاجزاء الراقية من المدينة . ولا يزال الناس لايدركون ما الذى يجنيه هؤلاء الرحل من التردد على هذه الاماكن . انهم لم يخلقوا لها ، ولا يمكن أن تناسبهم . أتراهم كانوا يدركون ذلك على اقل تقدير ؟

المدينة غارقة فى نور ساطع ، وكأن الطبيعة تنوى أن تطيل هذه الهدنة المضيئة . كان البرد قارسا ، ولكن الشمس تتلألأ .

والأسر التى يتعاطى جميع افرادها مهنة الحياكة كانت فى هذا العهد ، ربما أكثر من اى عهد مضى ، لا يحصى عددها : الرجال معلقون وراء أنوالهم العتيقة ، والنساء تندف الصوف أو تغزله . وكانت عينى نفسها تحصل من حين الى حين على جزز ملطخة بالدهن مثقلة بالتراب والوشل والبعر ، فتنظفها وتهيئها ، وتحمل الى سوق الغزل ، بعد عدد من الايام يقل او يكثر تبعا لما تطيقه قواها ، رطلا أو رطلين من الخيوط الناعمة اللينة اللون .

على أن المشهد المشجع المنعش انما كان مشهد المعامل . أن هذه المعامل كانت منذ زمن غير بعيد تعمل فى تثاقل . من ذا الذى لا يتذكر؟ تشهد على ذلك تلك الاسحار التى كانت فيها عينى تقف فى سوق الغزل مع كثيرات غيرها ، وهى تنتظر فى ملل ، عسى أن تجد زبونا يشترى منها غزلها . ولكن ما أن أخذت صفارات الانذار تولول ، حتى ألمت بالمعامل حمى مسعورة . فما من حى ، وما من مكان ، بل ما من ضاحية الا واهتزت بنشاط الحائكين ، فحيثما تذهب يستقبلك اصطفاق أمشاط ، أو اصطخاب مكاكيك . الانوال تلتهم الغزل وتسأل هل من مزيد ، فلا شيء يشبع جوعها الشديد المجنون الى هذا العلف الوافر : الصوف .

ان المدينة القديمة التى كانت مدينة أصحاب حرف ، تضحى الآن بغفوها العتيق وتستحيل الى ما يشبه مدينة صناعية . ومنذ انطلق هذا اللهب ، عدل الحائكون من تلقاء أنفسهم عن تعسفهم القديم ، فهم الآن ينتزعون من أيدى البائعات أى صوف مهما يكن شأنه . .

وتكاثرت المناسج والمعامل تكاثرا مباغتا ، بينما كانت تسافر الى فرنسا بغير توقف سجاجيد واغطية .

كان الألمان يأخذون فى نهاية الامر جميع هذه الانسجة ، يشترونها بالوزن ولا يعنيهم النوع . وروى بعضهم أن كل قطعة من هذه القطع كانت متى وصلت اليهم تمزق وتسحق وتحول الى مادة خام .

- ٣ -

لا يزال الجيش اللجب المتحرك من الجياع يزدحم فى الشوارع والأزقة بغير انقطاع . لكأنه يشق الارض ويخرج من أعماق مجهولة . غمار من الناس مخجل ، يتفلى فى الهـواء الطلق ، عارضا أعضـاءه المنهوكة ، وقروحه القائحة ، وأعينه المحتقنة بالتراخوما . ان رمادا باردا قد نثر على هذه المخلوقات التى لا هوية لها . وهم يتسكعون قليلا هنا ، وقليلا هناك ، ولكنهم لا يمضون قط الى أمكنة بعيدة . وليس يحفل بعضهم ببعض ، فهم لا يجتمعون ، الا اذا وزع طعام أو وزعت قروش ، فانهم يشكلون عندئذ حلقة ما تنفك تضخم .حتى اذا طردهم أحد فى مثل هذه اللحظة تفرقوا طائعين .

وساء الجو بعد بضعة أيام ، فاذا السماء تتبدل تبدلا كاملا على حين فجأة فتصبح قاتمة ثقيلة ، وتتعقـد فيها سـحب كثيفة ، ثم تنشق السحب عن أمطار غزيرة ، تهطل على الارض حانقة ، وتظل الامطار تنهمر كأنها تتدفق . وعادت كآبة المياه المضطربة تخدر المدينة.

ظل المتسـولون يضربون فى الارض على غير غاية ، وكأنهم لا يلاحظون هذا الطوفان الذى يبللهم . انهم يسيرون وقد ماتت منهم الاحداق ، وراحوا يمدون أيديهم بحـركة غريزية . انهم ينبعون من بين المطر المتسـاقط كامدين مبعثرين ، ثم ما يلبثون أن يعودوا اليه . لكأن العدم الرطب كان يتقيؤهم .

ألف السكان منظر هذه الاطياف الآن .

اذا لم تجئنا الامطار فى هذا العام بأى خير من خيراتها المعتادة كما يجب أن تتوقع ذلك ، فانها على الاقل ستدفع الى شوارعنا هذه الانواع من البشر ، الخلقة البالية ، الدكناء كأنها وحوش الغاب .

بهذا الكلام كان يتندر بعض المازحين .

وكان هؤلاء أنفسهم يقولون بصدد هذه المخلوقات البائسة :

— ليس فى الأمر خطورة .. ما هؤلاء الا منا .. أنظروا اليهم . انهم مرآة تنعكس فيها صورتنا نحن ، انهم أصدق صورة لما نحن عليه . أنظروا اليهم تروا هذه الصورة .

وظل الجو السيىء مقيما فى المدينة لا يبارحها . ان من الصعب على

المرء ان يعبر عما يترك هذا الجو السيىء في النفس من أثر . لقد اصبحت أيام الصحو الاخيرة ذكرى دارسة . وكان الناس حين يرون أعاصير الماء تهدد بابتلاع الكون يدمدمون قائلين : « حمانا الله من الكارثة . لقد انفتحت أقنية السماء » . ان الفيضانات تذهب بعدد من الضحايا في كل عام تقريبا . وبعض المساكن ينهار أحيانا . والناس يضيفون الى ذلك قولهم : « سبحان اسمه » .

ان أبخرة كثيفة تغشى المدينة في بعض الساعات من بعد الظهر ، وتبلغ من كثافتها ان المدينة تغيب فيها ، فما يستطيع أحد أن يميز شيئا . ومع ذلك كان الاعصار يزول في بعض اللحظات ، وكان الهواء يسكن شيئا بعد شيء ، ويظل المطر يهطل ، لكنه يهمى عندئذ رذاذا دقيقا ، بغشة خفيفة تشبه أن تكون دخانا . .

وتعود المباني الى الظهور ، مبتلة حتى الحجارة . وتسفر الاشجار عن قاماتها السوداء الشعثاء في جو مكبرت بارد الاشعة أدهمها . وتتمزق سحب رطبة على رءوس المآذن ، وتتشرج في أشجاب الدلب القديمة ، ثم تتبعثر اربا كبيرة ترقى الى السماء ، فتشدها هنالك رياح تهب على حين فجاة .

وولى الصحو بعد ذلك .

في ذلك اليوم عدل عمر عن الذهاب الى سكك الحديد ينبش حجارتها . انه يحتمي الآن ببعض الأروقة او بعض الشرفات ، ويثب فوق برك الماء ، راكضا الى البيت ليتجفف . لقد هبط الليل . ان القلة القليلة من الناس الذين لا يزالون يصادفون في الشوارع يسيرون بخطا حثيثة .

وفجاة أخذت الأمطار تدك الفضاء في عناد أقوى ، وهذه هي المدينة ، المظلمة المتمعة ، المختنقة بين جدران أسوارها ، التي تتعرج أزقتها الى غير نهاية ، وتتكدس بيوتها المتشابهة متسندا بعضها على بعض ، ويشبه كل حي من أحيائها أن يكون كتلة من وحل ، هذه هي المدينة تنتصب الآن وقد لاح منظرها أشد ما يكون عداوة وتكرا : جدرانا جهمة غفلا ، شوارع وأبراجا وأسقف مغسولة .

— ٤ —

حين أجبرت عينى ابنها على أن يخرج معها ، كانت المدينة لاتزال غارقة فى حلم من ماء وضجر . وقد التقيا أثناء الطريق بمتسولين ينتقلون جماعات جماعات ، ويفورون كالاشباح فى الشوارع الغارقة فى البخار ، فيبدون بعيدين بعيدين ...

ولكن سرعان ماظهرت كتلة « ميدان البليق » . هذه اكاليل من سلال القصب معلقة بسقوف خصاص الخشب القابعة فى وسط الميدان على صورة مربع ، حزام من قفف تختفى وراءها قفف وسحاحير خضر ودكاكين شواء ، كقلب اخضر قاتم تنشق فيه حوانيت الجزارين جروحا بلون البنفسج . ان رائحة قوية من روائح الفياض تملأ الجو . والامطار منهمكة فى اذابة الالوان الخضراء والشهباء عن الاشجار ومناضد الجزارين والناس والمبانى . والميدان والشوارع المجاورة ورشة بحركة الناس والعربات ذاهبة آيبة . والحمالون السغاب يجولون هنا وهناك فى خرق رثة : والفلاحون الخشان تفوح منهم رائحة الارض وهم يسيرون . وهؤلاء نسوة يمرون بالمكان متدثرات بحجب بيض . ان الضوضاء مخنوقة ، وأصوات الناس تخرج من صدورهم مبتلة ، والشحاذون ينادون نداءات مصرة بغير أمل : « حسنة يا اخوان ، صدقة ، حسنة » .

ان هؤلاء الشحاذين لا شأن لهم بأولئك الذين وفدوا الى المدينة فى المرة الاخيرة . انهم لا يثيرون قلق احد من الناس .

— « حسنة لله ، حسنة على أرواح موتاكم ، صدقة يا أهل الخير » .

وأمام خص من خصاص الخشب تجلس فيه على عروشها قدور نحلاء ، أبطأ عمرخطاه يتمصص الروائح المبتلة التى تخرج من القدور . ولكن صوت عينى ما لبث أن استحثه من بعيد كأنه مهماز . وسارا فى دروب المدينة الواطئة .

ان البيوت فى هذه الاحياء القديمة لا يصطف بعضها الى جانب بعض ، بل هى تتصادم فى فوضى كبيرة وسط الطريق المرصوف . وهذا جدول أسود يتلوى بين الابنية الهرمة المتآكلة . سارت عينى

وابنها أولا فى شارع صغير سريع الانحدار متعرج ، أفضى بهما الى « باب زير » ، ومن هناك دخلا فى شارع صغير آخر رمى بهما الى زقاق مسدود . كانت المدينة قد أقفرت مرة أخرى تحت وابل المطر .

وقفت عينى أخيرا أمام بيت عتيق ، مهيب المظهر ، رغـم تخربه ، ورفعت دقاقته البرونزية ، فقرعت الباب ثلاث مرات . كان الباب المصفح بالحديد مفتوحا ، ودوت الضربات فى الفراغ . احتمت عينى مع ابنها بالمدخل المغطى بمربعات قديمة من الخزف . ما من جواب . لا صوت الا صوت تساقط المطر على بلاط فناء البيت .

قرعت عينى الباب مرة أخرى ، ونادت :

ـ يا آمنة .

لقد حرصت عينى على ألا يكون صوتها قويا . المطر يتســـاقط على بلاط الفناء فى قرقعة متساوية . لكأن البيت خال من السكان . قوت عينى ضرباتها وصوت ندائها : طاق ، طاق ، طاق .

ـ يا آمنـــة .

فظهرت فى هذه المرة امرأة طويلة يابسة لها رأس كرأس الماعز ، فقالت لهما رأسا فى ايجاز وخشونة ، دون كلمة ترحيب :

ـ انه هنا .

فزفرت عينى تقول وقد أشرق وجهها :

ـ ها . . .

دخلت الأم وابنها وراء المرأة ، فقـــادتهما الى غرفة مظلمـــة كان يجلس فيها شخص متنفخ على فراش ، طاويا ساقيه . ان الغرفة الواسعة غارقة فى جو من الحشـايا . وفى الظل تلتمع أوان من النحاس التماعا غامضا . اخذت عينى تضرع الى الرجل وتبتهل دون مقدمات . فكان يصغى اليها من غير أن يتحرك ، ومن غير أن يطـــرف له جفن وكانت امرأته التى من عظام تراقبهما بعين حادة .

لم تصل عينى الى الكلام عن الغرض الذى جاءت من أجله الا بعد ربع ساعة من الزمان ، فلما عرضت على المحسن ماحى بوعنان انها تلتمس لابنها عملا تنهدت تقول : « هذا اليتيم » ، وهى تمسك بكم عمر الذى ظل واقفا خلفها ، وفى الوقت نفسه ارتعش أنفها واحمر ، واوشكت أن تنفجر باكية . فدمدم الرجل يقول :

ـ أرسليه الى مصنعى .

هذا هو الكلام الوحيد الذى سقط من شفتيه . فخرت عينى راكعة امامه تشكره .

وفى هذه اللحظة انفجر فى الغرفة بكاء طفل صغير . فأسرعت ربة البيت الى الركن الذى كانت تنطلق منه الصيحات . واشتبك صوت الام بصوت الرضيع . أخذت المرأة تصب على الطفل الصراخ سيلا من السب واللعن فى تدفق عارم :

ـ يا منحوس ، يا ملعون ، حمى تأخذك .. الا تستطيع أن تهدأ لحظة ؟ .. الله يحرمنى منك ..

وظل الطفل النزق يعول بكل ما أوتيت حنجرته من قوة ، غير مبال شتائم أمه .

كان عوبله لا يزال يسمع حين خرج عمر وامه من هذا المسكن مسرعين ، وصارا فى الشارع . لقد أدركا بتلك السرعة المعهودة فى الفقراء ، أن غضب هذه المرأة السليطة انما كان موجها اليهما لا الى الطفل .

— ٥ —

قال واحد فى الظل متذمرا :

ـ ماذا تريد ؟

فادرك عمر من الصفير الذى صحب هذه الكلمات أن الرجل الذى نطق بها غير ذى أسنان .

هبط عمر الدرجات الاخيرة من السلم الذى وقف عليه . فصار فى الكهف . ان رطوبة كرطوبة مناخر الحيوانات تلتصق بوجهه . احس الصبى باختناق . انه لا يرى شيئا . تحسر على الشارع : الا ان الامطار التى تهطل كالانهار خير من هذا الجو الخانق . تردد . واستبدت به رغبة جامحة فى صعود السلم والفرار من هذا المكان .

كرر الصوت يقول :

ـ ما الذى جاء بك ، هه ؟ قل ..

ـ أجاب عمر :

ـ ارسلنى صاحب المصنع .

وطافت فى خياله صورة المرأة الطويلة ذات الراس الذى يشبه رأس ماعز ، وصورة الشخص المنتفخ . وتخيل أمه عينى وهى تخر راكعة أمام ذلك الرجل ، وتخيل نفسه وهو يستحثها على القيام والخروج بعنيف القول ، فتنهض ولكنها لا تستطيع الذهاب ، وتظل تردد :

ـ أنت المحسن الينا ، أنت رب نعمتنا . جزاك الله عنا خيرا فى الدنيا والآخرة ...

ولما ألفت عينا عمر هذا النور الخافت الذى يضيء الكهف ، رأى الحائكين الذين كانوا ينظرون اليه نظرة عداوة . ان قسمات وجوههم جميعا ذاوية شاحبة .

لم يعرف ماذا يفعل .

ـ صاحب المصنع هو الذى أرسلنى لأعمل مكببا .

فنظر اليه الشخص الذى كلمه فى أول الامر نظرة فاحصة ، وقد ظهرت على وجهه أمارات التقزز :

ـ ما عمرك ؟

ـ خمس عشرة سنة .

زاد عمر عمره سنة من قبيل الحيطة .
ــ طيب ... تستطيع أن تبقى . واليك الشروط : فى آخر الاسبوع تتقاضى من كل حائك ما يقدر انك تستحق أن تتقاضاه .
قال الرجل ذلك بلهجة متعبة غير مغرية . فخفض الفتى رأسه .
قال الرجل :
ــ موافق ؟
ثم طاف ببصره على المصنع باحثا ، وقال :
ــ يازبيش ، انه يستطيع أن يبدأ .
فخرج من الظلام وراء عمر عفريت صغير مشوه ، له شعر كأنه الوبر أشعث ، فشد عمر من كتفه قائلا :
ــ تعال .
فتبعه عمر ، وابتعد الاثنان الى القاع الرطب اللثق من الكهف .
ــ ما اسمك ؟
كانا قد وصلا الى كومة ضخمة من الاكياس والعجلات وقطع الانوال والخيوط والعدد والأشياء الأخرى التى يصعب على المرء أن يعرف أوجه استعمالها .
ــ عمر ، وأنت ؟
ــ أنا الذى أسألك ، وليس لك أن تلقى أسئلة . اسمى حامى أما زبيش فهو اللقب الذى ألقب به . واعلم أننى هنا رئيس الصبية فعليك أن تفعل كل ما آمرك به ..
فنظر اليه عمر يلاحظه متحيرا ، وأضاف زبيش يقول وهو يتهزز على ساقيه العوجاوين .
ــ هل فهمت يا مغفل ؟
وكان الحائكون يتابعون كلام الصبيين دون أن ينقطعوا عن العمل . فقبض عمر كفه ، ودمدم يقول متوعدا بصوت خافت :
ــ اياك .. حذار ..
فنظر اليه زبيش يتفرس فيه دهشا ، وتمتم يقول :
ــ أأنت من أهل المشاكل ؟
ثم لم يلبث أن صاح يقول بلهجة المجاملة :
ــ اسمع يا عصا .. هلم نتصالح ، هل تريد ؟ أنت ترنحت لأننى رميتك بسهامى ، فاعلم أن الأمور ستظل تجرى على هذا المنوال ما بقيت هنا .. انك لم تر شيئا بعد . انتظر قليلا ، وليسلخن جلدك سلخا .. موافق ؟

ومد يده الى عمر ، فتناولها هذا ، وتابع الصبي يقول :

ـ ليس يجديك انك كبير . لسوف ترى هذا بأم عينك . أنت جديد ، وعلى الجديد أن يطيع القدامى . عليك أن تطيع ، هذه نصيحتي اليك .. الطاعة خير لك .

دمدم عمر يقول من بين أسنانه انه موافق ، فدهش زبيش من هذا الاذعان الذي لم يتوقعه .

ـ حسن ... أنت فتى طيب ... هيا كبب شلل الغزل التي تراها هناك .

قال زبيش ذلك وهو يشير بيده الى شلل من الصوف المغزول نضدت تحت درج . كان عمر يعرف ما هو العمل في مصنع نسيج . فغرز مكبا على مداره الحديدي ، ووضع عليه شلة من صوف ثخين مبروم بـــرما متفاوتا ، وأخذ يعمل شادا رأس الخيط .

انه يعمل منذ برهة ، تحيق به جلبة مغزل . واصطفاق الأمشاط يوشق بعضه في بعض بين قرقعات المكاكيك . ان عمر يصغي الى هذه الضوضاء .. ويصغي الى الضجة الناعمة المخشخشة التي يحدثها مكبه . امس كان حرا . امس كان يجري في الشوارع طليقا بغير لجام . وهذه حياته الآن تقطع قطعا بما يشبه الساطور . شعر عمر بحزن مفاجىء يأخذ بمجامع نفســه .

***

الظهر . لم يمض احد . وعمر لا يجرؤ أن يمضي أيضا . فعل ما فعله غيره . لم يترك الكهف . صبر . رآهم يخرجون طعاما . ومر قربه رجل عملاق تزين وجهه لحية كالفحم سوادا ، فسأله بصوت عريض :

ـ ألم تجيء بطعام ؟

فلما أجابه الصبي بحركة من رأسه انه لم يجيء بطعام ، قطب الحائك حاجبيه ، ومضى الى نوله ثم عاد يحمل قطعة من خبز الشعير وقليلا من الزيتون الجاف وضعهما بين يديه .

شخص عمر اليه بعينين دهشتين . فتأمله الرجل العملاق صامتا انه ليس ممن يكثرون الكلام . ومضى يلحق بجماعة العمال الذين كانوا يتناولون طعامهم عند قاعدة الدرج ، دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة .

وبينما كان عمر يمضغ خبزه ، وصل زبيش ، وعاد يصـــدر اوامره :

ـ حاول ألا تنسى في المساء ، قبل اغلاق الدكان ، ان عليك أن ترتب الاشياء المبعثرة ، وأن تكنس الارض ، وأن تحمل الاغطية الى المستودع بعد ذلك .

ـ وأنت ؟

ـ أنا ؟ سأفعل مثلك يا أبله .. ولكنني هنا أقدم منك ، فعليك أن تتبع نصائحي . ستجرى الامور على خير حال اذا أنت قررت أن تطيعني ..

قال زبيش ذلك ، وغمز الصبي الجديد . كان يبدو مسرورا بشيء لم يستطع عمر أن يعرف ما هو . كانت حدقتاه المحتقنتان تلتمعان رغم الغشاوة التي تحجبهما . وظل يثرثر بصوت شرس ، ثم غنى الحانا لا رأس لها ولا ذنب .

وفجأة أخذ يحكي قصة عن أبيه . قال ان أباه الذي مات منذ ثلاث سنين كان حدادا . وفي ذات يوم بلل احدى بناته بزيت الكاز ، وهي في السنة الاولى من عمرها ، ثم أحرقها حية . كان لا يعمل ، وكان يعود الى البيت في كل يوم وهو في سكر شديد . وكانت الأم لا تدري ماذا تصنع من أجل أن تجيئهم بطعام . كانت تمضي تتسول متلفعة بحجابها ..

وما كاد الصبي يفرغ من حكاية هذه القصة حتى شرع في حكاية قصص أخرى . فلم يبق في ذهن عمر من هذا السيل من الكلام الذي سمعه الا أن هناك عصابات من اللصوص لا يستطيع أحد أن يقبض عليهم ، حتى ولا ذلك الجيش من رجال الدرك الذي يطاردهم .. ففي اللحظة التي يظن انهم على وشك أن يقبض عليهم ، يتحدث الناس عنهم في الطرف الآخر من البلاد . وحين يعتقد أخيرا أن القبض عليهم أصبح أمرا أكيدا ، يختفون بما يشبه السحر ، فما يعثر لهم على أثر . وخفض زبيش صوته ليقول ان الفلاحين يساعدونهم لأن هذه العصابات من اللصوص تعاقب اغنياء المستوطنين الفرنسيين وتفرض عليهم الأتاوات .

كان الصبي يعرف قصصا كثيرة مرعبة ، عن السحرة ، والقتلى ، والأرواح ، والغيلان .. ان اعتلال صحته ، وذبول جسمه قبل الأوان لم يخفضا نشاطه ، بل انهما ليوقدان في عروقه نارا .

وكان بوزيد ، وهو صبي آخر ، قد قرفص قربهما ، وأخذ يصغى الى الحديث محملقا .

وفي هذه اللحظة صاح شول يأمر :

ـ الى العمل يا أولاد !

ان شول هو ذلك الرجل الذى ليس له أسنان . انه بجسمه المعروق ووجهه الأغبر وشعره القصير ، أشبه بمقشة عتيقة متنتفة . أخذ يدنو بخطا متبخترة ، وهو يضحك ضحكة تكشف عن لثتيه البنفسجيتين ، وعيناه جافتان جارفتان كعينى باز .. حتى اذا أوشك أن يحاذى زبيش ، انبطح العفريت الصغير على الارض . ان هذه الحركة تجنب الصبى لطمات اليد العريضة الصلبة ، يد هذا الحائك . كان شول يتصرف تصرف من هو صاحب المصنع . أتراه كان يستمد هذه السلطة من رب العمل ؟ لا شك فى أن الأمر كذلك ، فقد كان العمال يخضعون لاوامره .

كرهه عمر .

ــ هيا .. بسرعة .. الى العمل !

واشتد الظلام فجأة فى الكهف ، حتى ليعجز المرء أن يجد طريقه فيه الا تلمسا . وانتشر برد قارس كالثلج . لا شك ان السماء قد غشيتها السحب . جلس عمر أمام مكبه . ونهض زبيش بسرعة منذ تجاوزه شول ، وأخذ يصيح صيحات طويلة : « هوه ، هوه » واشتعل المصباحان اللذان كانا معلقين فى القبة يغطيهما الغبار .

نظر عمر الى مكبه وهو يدور . هؤلاء الناس ، هذا الرجل الذى اسمه شول .. نظر عمر اليهم متفرسا .. انهم أشبه ببوم اختار مسكنه فى ظلمات هذا الكهف .

- ٦ -

لم يأت المعلم ماحي بوعنان الا فى نحو الساعة الرابعة ٠ هو ذا يصل الآن متلففا بقبـاء أحمر من وبر الجمـل ، وقد انتفخ القباء بالماء وتصلب . ان كل حديث قد انقطع من قبل ان يصل الى آخر الدرج ، وتضاعف نشاط الأنوال .

قلما صار فى وسط المصنع رد عمارة البرنس بحركة من كتفه الى وراء ، وأخذ يهز جسمه ليتساقط عنه الماء . ان قطرات كثيرة تتساقط على الارض فيسمع وقع تساقطها ٠ وكانت الريح تهز زجاج النوافذ .

وتهالك المعلم بعد ذلك على كومة من الأغطية قرب كانون من فخار فيه فحم مشتعل ، ثم مال بجذعه على النار وأخذ يدفىء يديه صابرا ٠ ان بقعا حمراء ترتسم على قبائه ٠ وان انعكاسات مثلها توقد نارا فى عينيه ٠

قال شول :

ــ جو لعين !

ــ هم ...

هكذا زفر ماحي بوعنـان وهو يقوس حاجبيـه ويرفع أجفـانه المتورمة .

وغمس فى الرماد الرخو ملعقة معدنية طويلة الأطراف ، فحرك بها النـار ، فاذا الجمرات التى لم يكمل اشتعالها تطقطق وتقـذف بشراراتها ، فيسحق منها بوعنـان ما وصلت اليه يداه ، ويراقب الأخرى وهى تنطفىء من تلقاء ذاتها .

انطلق شول يضحك ضـحكة انتهت بغرغرة . وكانت عينـاه المدورتان اللتان ليس لهما أهداب ترقبان رب العمل . قال :

ــ تكاد تحرق الورشة .

فلم ينظر اليه ماحي بوعنان ، ومال على الكانون بوجهه الثقيـل وشاربيه الأشعثين المتدليين .

هتف حمدوش يقول ، وهو شاب أحمر الوجه :

ــ يا معلم ، اذا استمر هذا الجو ، فأنت الذى ستجمع الذهب ،

فما من جو يروج أعمال الحائكين كهذا الجو ..

وكان ماحى بوعنان يصغى الى هذا الكلام ، فألقى عليه العامل المتوهج الرأس نظرة شزراء .

ــ سيكون فى وسعك أن تدفع لنا المتأخر من حسابنا بعد الآن ، أليس كذلك ؟ .. اننا ننتظر منذ أسابيع . وما هو بالمال الكثير ، ولكنك لا تفلته بسهولة ، اعترف بذلك . حذار ثم حذار ، انه لخير للمرء ألا يملك ذهبا كثيرا . فكلما ازداد ما يكتنزه منه ازداد حسد الناس له .

قال حمدوش ذلك وضحك ضحكة حادة . ان هذا الفتى الجميل، وهو أصغر العمـال سنا ، يتكلم بصوت عال متقطـع ، يحنق من يخاطبهم . ظل ماحى بوعنان صامتا ، متسندا على الأغطية بعيدا مائة فرسخ عما كان يقوله الآخر .

ورجع هذا عن رأيه فاستدرك يقول :

ــ أوه .. ما قلت هذا متشكيا ، فالأمور باقية على حالهـا ، وينبغى للمرء أن يقبلها ، خير للانسان أن ...

فرفع رب العمل رأسه ، وألقى عليه نظرة احتقار . وقبـل أن يستطيع الشاب الأحمر أن يضيف الى ما قاله شيئا ، كانت عينا ماحى بوعنان قد اختبأتا تحت حاجبيه الكثيفين . وظل حمدوش ساكتا .

فاذا بضحكة ساخرة تفضن خدى شول الذاويتين .

ــ اذا حل الخير أصاب منه الجميع . وانما ينبغى للانسـان أن يؤدى عمله فى أمانة .

ــ خاصة وأننا لن نبدل من الامر شيئا مهما نقتتل !

بهذا أجاب حمدوش وكان التهكم يرعش صوته .

فقال شول مؤمنا على كلامه :

ــ ها ... نعم ... نعم ..

فاذا بالشاب يصرخ ملء حلقه :

ــ لا ..

ففرح عمر حين سمع هذا الجواب . ان شول لا يخيف اذن جميع العمال . وحملق شول .

وأردف حمدوش يقول بصوت بارز النبرة :

ــ لقد نشأت وترعرعت فى حرفة النسيج هذه . بدأت العمـل فيها ولم أتجاوز الخامسة من عمرى . كان أبى هو صاحب المصنع .

فلما بلغت الخامسة عشرة أخذت مكاني الى جانبه على النول الذى كان يحتله من مصنعه . غير أنه كان قد أكل كثيرا من تراب الصوف، فما لبث أن مات .

ومنذ أن قضى ولم يعد موجودا ليفنى نفسه فى عمله ، مات مصنعنا بأنواله الثلاثة ، وانتهى الأمر ..

كانت عيناه اللتان تشبهان عينى قط قد ثبتتا على شول وهما تقدحان شررا . وأضاف يقول :

ــ فماذا افادنا أننا ادينا عملنا فى أمانة ؟ بماذا عاد علينا ذلك ؟ بقبض الريح ! واضطررت فى آخر الأمر أن أصبح عاملا فى مصنع غرباء .

خيم الصمت مرة اخرى فى ارتباك . أخذ ماحي بوعنان ينظر الى خيوط الصوف وهى تتشابك وتنحل على نول عكاشة الذى كان يعمل قبالته . وحرك يده باشارة تذمر .

قال العم صقالي مدمدما :

ــ الشقاء كثير فى هذا العالم ..

فأضاف حمدوش :

ــ كثير جدا ، وان المرء ليخطر بباله ما لا أدرى ..

فهز شول رأسه وهو يعض شفتيه .

ــ لست فى الطريق القويم يا صاحبى ، لست فى الطريق القويم التى وضعك الله فيها .

فانتصب حمدوش وقد لاح فى وجهه غضب متوحش . ان ذؤابته الحمراء تلتمع فى عتمة الكهف . قال :

ــ هذا ما يقال دائما للذين يجرءون أن يشتكوا ..

فما كان من قوطى الأمين ، وهو حائك عجوز ، الا ان قال وقد نفد صبره :

ــ هوه ... الا انك لا تتورع ولا تتحرج . اياك أن تضيف الى ما قلت كلمة واحدة ، والا لن تعرف ما يمكن ان يقع ..

فأجاب حمدوش يقول :

ــ ماذا اذن ؟ ان الله نفسه تخلى عنا .

قال حمدوش ذلك ، وبصق بين قدميه على بساط للفضلات ، مترقبا ان يكذبه احد .

ولكن لم يفه احد فى المصنع بكلمة .

فقال فى ألم :

– على كل حال ..

نظر ماحي بوعنان الى عماله ثم أغمض عينيه كأنما هو يريد أن يحذف العالم حوله . وظل على هذه الحال مدة من الوقت . كان عمر الذي يعمل على مسافة بضع خطوات يتأمل رأسه الضخم مبهوتا . وعاد اليه انزعاجه الشديد الذي شعر به في ذلك الصباح أمام هذا الرجل . ان المعلم يمصمص شاربيه ، فيصدر من ذلك صوت ضعيف . ليس هو الآن الا كتلة من عدم الاكتراث . ثم تقبض وجهه وبدا عليه انه يستيقظ . طاف ببصره على الأنوال متحاشيا أن ينظر الى العمال ، ثم نهض ليمضي .

ما ان خرج ماحي بوعنان حتى تقلصت قسمات العمال غما وحزنا . ان النهار يوشك أن ينتهي . أرخى كل منهم العنان لحنقه ، وقام بينهم وبين الأنوال صراع رهيب . الأنوال الواطئة المرصوص بعضها الى جانب بعض تحت السقف المقبب ، تئن ولا من يرحمها بين الرجال العشرة . ان بعضهم يتخالس النظر . وهذا بعض آخر يعتصم بصمت يفيض حقدا . وما ينفك صراخهم في طلب المزيد من الصوف المكبب يطيش الباب الصبية . يئس عمر من امدادهم بكل ما هم في حاجة اليه من هذا الصوف . كان يعمل مسرعا ، ثم يزيد سرعته وهو يحس ان قلبه يوشك أن ينفجر .

انقضى آخر النهار دون أن يتبدل شيء . هبط الليل وما زال العمال يعملون ..

وحانت ساعة الانصراف ، لم يخطر ببال أحد أمر ترتيب الكهف وكنسه . أدرك عمر انه ليس عليه أن يهتم كثيرا بهذا الأمر .

خرج عمر من الكهف . لا هو ولا الصبيان الآخران حملوا القطع المنتهية لتسليمها ، وذلك بسبب المطر . جعل عمر يركض ركضا شديدا حتى لتكاد ساقاه تلامسان عنقه . كانت سيول بيضاء تتلاحق سريعة في أعلى السماء ، وتجري في الشوارع ، وتتكسر على الأرض . ان قطرات المطر تخز وجهه وخزا . وهذه أنوار البيوت الاوروبية اثناء الليل توقظ في الخيال صور حياة هادئة سعيدة . كان عمر يركض طائش اللب أعمى البصر . ان الأمطار والرياح التي ينشقها ملء رئتيه تثير في صدره سعالا ممزقا .. ومع ذلك كان يتجمع في قلبه شعور دافيء بالرضا والارتياح ، شعور لا عهد له بمثله من قبل .

– ٧ –

في ساعة متأخرة من الليل ذهب هو وامه الى مركز تموين الفحم، فوجدا جمهورا من الناس قد اصطف بعضهم وراء بعض ينتظرون . لقد وصلا متأخرين ، فان الليل قد جاوز نصفه . احتلا مكانا بين المنتظرين على طول العنابر التى توزع الفحم على السكان الاصليين ، واخذا ينتظران . كانت عينى قد ألقت على حايكها منشفة تتقى بها شدة البرد ، كما أن عمر قد وضع على رأسه كيسا من الاكيـاس يعتمر به على طريقة الشيالين فى الموانىء . ان عمر قد أخذ يشعر باحساس لم يستطع كيف يعلله ، ولا عرف الى أى سبب يرجعه : لكأن قنديلا يضيئه فى داخل ، ويوقد فى نفسه شعلة هادئة قوية . وظل الناس ينتظرون وينتظرون ، فالامطار الغزيرة تلهبهم بسياطها فى غير انقطاع ، والليل يبدو لهم انه لن ينتهى ، والسماء تنشر قلوعا متموجة من المياه ما تنفك تهوى فى غياهب الظلام .

وفى أثناء ذلك تسلل الى الفضاء شعاع نحيل من ضياء تحير قبل أن يظهر ، ولاح أن الامطار ستهدأ .

كانت قد انقضت ساعات حين بدأ توزيع مؤونة الفحم : خمسة كيلوات لكل فرد من أفراد الأسرة ، بالسعر المحدد . وأخذ الصبح الشاحب يتمطى . حتى اذا وافت الساعة الحادية عشرة جاء دور الأم وابنها فى تسلم المؤونة من الفحم . فحمل عمر الكيس الممتلىء نصفه على كتفيه وأسرع يعود الى البيت . لقد تنفس الصـعداء وسرى عنه . ترك امه بعيدة وراءه . فما ان وصلت هذه بعد قليل حتى مدت بساط الليف المهترئة حواشيه ، الذى ورثته عن الجدة ماما ، ورقدت عليه .

ونامت مستندة بظهرها الى الجدار ، وقد التف منـديلها على رأسها ، وقبع فوقه كالمنشفة التى يلف بها الراس عند الخروج من الحمام . ان فكيها هابطان ، وقد انمطت شفتاها بوزا ضخما . أدرك عمر أن دفئا منعشا قد اجتاح اخيرا جسم امه الذى صقع من شدة البرد .

وهبت ريح ، فتطايرت الستارة الثخينة المسدلة على الباب ، ولطخ المطر العتبة ، وغارت عاصفة أقسى من العواصف التى سبقتها، فلمح عمر الفسق الذى يلفح وجهه بأنفاسه الباردة . ان هذه الغرفة الطويلة ذات البلاط المربع الاحمر ، والجدران المطلية بلكس أخضر ، وما فيها من جلود الخراف الهزيلة ، والأسمال البالية ، والخزانة المصنوعة من خشب ألواح السحاحير ، هذه الغرفة تبدو له الآن مهجورة لا يسكنها أحد .

راح عمر يتأمل هذه الاشياء وقد جلس على البساط أمام الباب . ان صمتها الأخرس يدهشه . وثقلت نظراته عليها ، ولكن كل شىء منها ظل محتفظا بوجهه المألوف . استمر عمر فى أحلامه . لا صوت الا صوت تساقط المطر يعكر هذا الصمت .

وأخرجه من تأملاته تنفس أمه السريع . نظر اليه متفرسا : انها عجوز . شعر بألم يحز فى قلبه . انه لم يتساءل قبل الآن ما عسى أن يكون عمرها . وها هو ذا يجرى حسابا سريعا من أجل أن يقدر لها سنا . قال لنفسه : « أربعون سنة .. بل انها لم تبلغ حتى الاربعين . » انها لا تزال كما كانت ، لا تزال على حالها ، غير أن هناك الآن هذه اللحظة من الغفو ، وذلك النهار الماطر ، وهذا المساء الكالح . ظل ينظر اليها صامتا . وكأن الأفكار التى دارت فى ذهن الفتى قد لامست أمه ، فاذا عينى تتحرك فى رفق ، ثم ما تلبث أن تعود الى سباتها العميق .

لقد سبق أن قالت لا لا فى ذات يوم : « المرأة الوحيدة يدب اليها الهرم قبل غيرها » . ما أصدق ذلك القول ! ان عينى يمكن أن تكون بنت لالا سنا ، ومع ذلك فلو رآها فى هذه اللحظة رأى لحلف أنها هى الأكبر سنا . ان كل زفرة من زفراتها تنفخ خديها واحدة بعد أخرى، ثم تخرج من بين شفتيها فى شخير . وفجأة نشقت نشقة عميقة ، وأخذت تتنفس من فمها الفاغر .

كان عمر يحس أن هوة تقوم بينه وبين هذه المرأة التى شوه وجهها النوم . انه مشدوه أمام هذه المرأة الضعيفة المهجورة ، حتى لكأنه غريب عنها . أى شبه بين أمه وبين هذه العجوز التى ترقد هنا ؟ ترى أيكون لها هذا الوجه نفسه حين يوافيها أجلها على حين بغتة ؟ وهاجمت رأس الفتى أسئلة أخرى أيضا . ما عساه يصنع حين يراها تلفظ أنفاسها الاخيرة ؟ أتراه يموت قبلها ؟ أم أنها هى التى ستموت قبله ؟

وحدث نفسه بقوله : « أفضل أن أموت من أجل أن تعيش أمي »
ان بقعا كبيرة من رطوبة تدب في السقف وعلى الجدران ، فتلتهم طلاء الكلس . والعتمة ترشح من خلال الحواجز وتتجمع في الغرفة .
النهار في خارج الغرفة لا يزال أشهب .
سكان دار سبيطار قد قبع كل منهم في ركنه . فناء البيت خال . ولا صوت يخرج من المطبخ الكبير المشترك .

***

ما كان لعيني أن تدهش أكثر مما دهشت لو شدها زند قوي فانتزعها من البله الذي كانت فيه . انها منذ لحظة تصارع أشباحا ، وتتمتم بأصوات هاذية لا معنى لها . ان هذه الظلمة التي تحاصر الغرفة وتدور في الزوايا وما تنفك تكثف تشوشها أشد التشويش .
فلما رأت في المكان الذي يجلس فيه عمر كتلة غامضة لا يكاد يكون لها شكل ، قالت لنفسها ، وقد قوي صوتها :
ـ هذا كابوس حقا ! اظن أنني غفوت . ما هذا الاختناق ؟ يا روح أجدادي ! هل جثمت السماء على الأرض ؟
وسألت الفتى تقول :
ـ ألم تجيء أختاك بعد ؟
كان في سؤالها قلق . قال عمر لنفسه : « انهما لم تجيئا بعد . لسبب بسيط هو أن مصنع السجاد لا يطلق سراحهما الا في الساعة السادسة من المساء » .
ـ لماذا لا تذهب للقائهما يا بني ؟
ـ الا تعلمين انهما لا تخرجان من المصنع الا في الساعة السادسة ؟ ستجيئان .
ـ أنت هنا في مأمن ، وليس على المرء أن يزعج نفسه من أجل غيره .
واضافت تقلد صوت ابنها :
ـ ستجيئان ..
وبصقت على الأرض احتقارا :
ـ تفو ...
نظر الصبي من خلال شق الباب الى السماء المنخفضة التي تتخللها التماعات مزرقة . ان رؤيتها أصبحت متعذرة منذ الآن ، هذه السماء .
وصاحت عيني تقول في الظلام :

ـ يا محمد فى البيت ، والعمة فاطمة فى السوق : هذا ما يجب أن يقال عنك .

ـ لن يأكلهما أحد .. الا تنوين ان توقدى لنا بعض النار ؟

ـ كان ينبغى أن تكون الآن منهمكا فى العمل لا قابعا فى البيت ، لولا أن قلبك ميت ..

خير له ألا يرد عليها بكلمة .. انها تعتقد أن الكوارث تتراكم فوق رأسها الى غير نهاية . أليس خيرا من هذا أن تدفىء الغرفة قليلا ؟ ما أشد تقتيرها فى استعمال هذا الفحم الذى يوزعه التموين ! انها تضن باشعال القليل من النار حتى فى أيام البرد القارس ! انها بعد أن تهيىء الطعام تبلل الموقد حفاظا على الجمر .

ـ لست تصلح لشىء ..

قال يدافع عن نفسه وقد نفد صبره :

ـ هبينى حاولت أن أخرج ، فهل ترين كيف أكون فى الشارع ؟ بأية ملابس ؟

لقد تبللت ثيابه فى الليلة البارحة ، وليس له ثياب غيرها .

قالت :

ـ ليس يهمك أنت الا أن تأكل وأن تنام .

ثم رددت بصوت كأنه صوت من يتكلم فى منامه :

ـ وجدت الفندق والمطعم ، فتمتع .. وسوف نسأل عنك ذات يوم ، فاذا أنت قد اختفيت . ستطير عاجلا أو آجلا كما طار الآخرون .

« الآخرون ؟ من هم هؤلاء الآخرون ؟ » كذلك تساءل الصبى مروعا ، وأصغى الى أمه بعد ذلك دون أن يطرف له جفن .

كان يعرف ما يطرأ على مزاجها بين الفينة والفينة من تقلب مخيف . هذا بعينه ما يحدث فى كل مرة . منذ ثلاثة أيام قالت له ، ناسية أنها هى التى قادته الى ماحى بوعنان : « لو بقيت فى المدرسة لأمكن ان تحصل فى المستقبل على عمل فى مكتب .. ولو كناسا . أما الآن فما عسى أن تصبح ؟ حائكا ؟ لسوف تعمل فى النهار والليل دون أن تجنى كسرة الخبز . هل تسمع ؟ لن تجنى كسرة الخبز » .

استولى خدر الليل على الدار الواسعة . والأمطار التى ضاعفت حماستها أثناء ذلك لا تزال تفضى الى الفناء والى الاروقة بهذيانها المحموم الذى لا ينقطع .

أضافت عينى تقول بعد أن ظلت صامتة خلال لحظة من الوقت :

ـ .. ذلك أنك تظن نفسك رجلا .

وعادت تنعته بأنه ليس له قلب ، وبأنه أشبه بالعلقة .

لقد استبد بها الغضب . ثم قالت تلومه : لعلك تحسب ان ليس في قلبي الكفاية من الجروح .

ان صفير الريح وقرقعة المطر ، اللذين يختلطان بصيحات عيني ، قد ايقظتا في قلب عمر حزنا شديدا لا سبيل الى وصفه .

كان يأس عيني ينبع من مصدر آخر ..

قالت مدمدمة :

ـ على هذه الأرض اللعينة ولدنا كما يولد العار ، واكلنا كما تأكل الحثالات ، وتركنا كما يترك المنبوذون . حتى خبزنا أسود ، كسواد هذا الليل الذي يلفنا بظلامه .

- ٨ -

عمر ينظر الى فرجة الباب الشاحبة ، وينظر الى الليل المخيم وراءها ، وعيني راقدة تحلم . ان الصبي يستعرض أعماله ويحس أنه مذنب رغم أنفه . لقد أثرت في نفسه شكايات أمه .

انقضت بضع دقائق ، ثم قالت عيني تسأل ابنها :

ــ هل رأيت اعلان البلدية ؟ هل اعلن عن توزيع الدقيق ؟

ــ لا ، لم يعلن الا عن الزيت والصابون ، وقد أخذناهما . فاذا فعلوا كما فعلوا في المرة الماضية ، كان توزيع الدقيق لا يجيء أوانه الا بعد ثمانية أيام أو تسعة .

ــ ليتهم يستعجلون !

قالت ذلك مدمدمة ، وزفرت زفرة عميقة ، ثم أضافت بلهجة ذاهلة :

ــ الشحاذون يصلون من كل مكان في هذه الايام .

ــ لا غرابة في هذا والجو على ما ترين .

كان عمر متربعا على البساط ، يمسك بيديه قدميه العاريتين ويصغي الى ضجة الأمطار ويحدق الى الظلام . ان حواسه كلهـــا متجهة الى الليل الذي تجتاحه الزوابع . الريح تهب عاتية ، من الشمال تارة ومن الغرب تارة ، تحـــاول ان تهشم المدينة ، ولكنها تصطدم بجميع المنافذ عمياء مجنونة ، فتجدها موصدة مسدودة .

« يجب أن أكافح جميع الصعوبات ، مهما يكلف الأمر ، ولو أرقت في سبيل ذلك دمي » .

قال عمر ذلك لنفسه ، فألقى هذا الوضوح على أفكاره ضـــياء ساطعا .

وسمع وقع خطوات عجلى بعد ضجة احدثها دفع باب الدار دفعا قويا ، فاهتز من ذلك ما كان يرين على دار سبيطار من ركود ثقيل . وتبعت ذلك بلبلة وشبت آهات وصيحات .

قال عمر وهو ينتفض :

ــ جاءتا .

ــ اخرس .. أتظن ان ليس لي أذنان اسمع بهما ؟

ان خطوات نشيطة تقرقع فى فنــاء البيت تحت . لقــد عادت عيوشة ومريم من العمل مع العائدات من الجارات الصغيرات . انهن يشتمن تجهم السماء بالامطار ، غير أن اصــواتهن المفردة تفيض بالضحكات .

قالت عينى لابنها آمرة :

– أشعل النور ، فقد خنقنا هذا الظلام .

وما هى الا لحظــة حتى ظهرت البنتــان وقد حسرتا عن الوجه الحجاب . ان المطر الذى رشح الى الراس من خــلال الحايك قد الصق بالخدود خصلا من الشعر . وتغير كل شىء فى الغــرفة حين وصولهما .

فما كادتا تدخلان الغرفة حتى انفجرتا فى ثرثرة لا اول لها ولا آخر ، ولا تقطعها الا صرخات صغيرة . ان كلا منهما تريد أن تسبق الأخرى فى الكلام ، حتى اذا استطاعت احــداهما ذلك ، لم تلبث الثانية ان تصبح ثائرة :

– صوتك مسموع فى أقصى المدينة . اسكتى .. اف ..

فتجيب الأولى ، أو تجيب الثانية :

– أتريدين أن تكممى فمى ؟ يانور عينى !

فلما تذمرت الأم ، طفقت البنتان ترتبان الحجرة قليلا على مهل ، غير أن مريم ما تلبث أن تتعب ، فتستلقى على البســاط . على أنهما لم تكفا عن الثرثرة أثناء طواف عيوشة فى الغرفة ذهابا وايابا . حتى اذا غابت عيوشة ، فى لحظة من اللحظات ، خلسة ، لتنزل الى زهور فى الطابق الأرضى ، لم يخف ذلك على عمر . لقد تركت زهور زوجها منذ عدة ايام ، والناس فى دار سبيطار يحيطونها بعناية شديدة . والفتيات فى ظمأ الى معرفة ما قد كان الزواج بالنســبة اليها ، اكثر من غيرهن . فكان حشدهن المهذار يجتمع فى غرفة احدى الجارات تحت ، لأن أم زهور ما كان لها أن تحتمل انعقاد هذه الاجتماعات عندها ، فقد كانت تنفجر باكية متى لمس احد أنفها ، على حد التعبير الشائع . انها منذ المشاجرة الاولى التى وقعت بين زهور وبين زوجها لم تشأ أن تتدخل فى الأمر ، حتى لقد تجهمت لابنتها النائحة ، خشية أن تعود اليها مطرودة الى أمد طويل ، او ربمــا مطلقة .. كانت اذا تصورت هذا الاحتمال يغزوها رعب شديد .

وها هى ذى زهور قد رجعت الى دار سبيطار .. مسكينة أمها ..

حين قصت زهور علي أمها كل ما قاسته تفصيلا ، لم تــزد المرأة العجوز على أن قالت :

— حين تضرب احدانا فى ركن ، تلجأ الى ركن آخر .

وقد علم عمر بهذه التفاصيل من أحاديث أخته . أما زهور فكان يلمحها من بعيد ، لحظات قصار ، وقد ارتدت ثوبها المصــنوع من حرير بلون الورد ، وعلقت بأذنيها قرطين من ذهب . لشد ما تغيرت !

— ٩ —

كان في يده خبز وسردينة من الليلة البارحة . الصبح يصبغ الجو بالبياض ومع ذلك يحاول ضوء النهار عبثا أن يتملص من الاكفهرار الصقيع الذي يغشى السماء . وفي بعيد دوى صفير صفارة انذار منذ لحظة ، كأنه صراخ انسان يسلخ جلده .

كان عمر قد بدأ يعض الخبز والسردينة في الهواء البارد ، وكان هذا الهواء يلهب شهوته الى الطعام .

الشوارع تبلغ من ازدحامها بالشحاذين ان الصبي اضطر في غير موضع أن يخطو فوق أجسام من اجل ان يمضي في سبيله . يشبه هذا ما كان يقع في الماضي حين كان المعازون يجتازون المدينة في مطلع الصباح ، فتتجول قطعانهم في الشوارع والازقة . كان المعازون في ذلك الوقت يحلبون ضروع الماعز فيملأون بلبنها الانية التي يجيء بها اليهم سكان المدينة الناعسون . ولكن الناس يخطون الان فوق بشر لا فوق ماعز .

أن لهؤلاء المتشردين وجوها مصوحة يابسة : نساء ذهبت أنوثتهن يجلسن على الارصفة او على درجات المخازن ، ورجال بعضهم واقف وبعضهم قد انثنى نصفين يخبيء يديه تحت أسماله الرثة .

كان عمر يلاحظهم أثناء مروره ويأكل . أن الضوء الضعيف يكشف عن عدد كبير من هؤلاء المتشردين ، فكلما سار الفتى التقى منهم بجديد . أن عددهم أكبر كثيرا مما تخيل الناس في أي يوم من الايام .

تقدم عمر من أحد هؤلاء المتشردين ، وهو رجل قصير مدبوغ الوجه ، فتردد عنده قليلا ، ثم مد اليه الخبز والسمك ، وهو يسأله هل يريد أن يأخذهما .

— هات .

— هل أنت شحاذ !

واقترب بعضهم ، ونظر اليه آخرون من بعد دون أن يتحركوا .

— هل انا شحاذ ؟ أوه ...

المستطلعون الذين تجمعوا حول عمر يمدون اليه أعناقهم . والنساء الجالسات على الأكياس التفتن ينظرن اليه بمزيد من التفرس . مامن

أحد فتح فاه . وما من أحد تحرك .

لا شك أنهم كانوا سيظلون يرمقون عمر بهذه النظرة مدة طويلة لولا أن الرجل قد ترك عمر فجأة وأخذ يشغل نفسه بأن مال على بنت صغيرة مستندة بظهرها الى الجدار ، ففتت فى كفه كسرة من الخبز فى رفق ، ثم دس الخبز تحت منديلها ، ووضعه فى فمها . ليست الفتاة كبيرة ، ولا هى رائعة الجمال . واخذالمتجمهرون من الرجال والنساء ينظرون اليها وهى تأكل دون أن يقولوا شيئا . انها تقضم الخبز بأطراف اسنانها ، وهى تهز رأسها • أن عينيها السوداوين تحترقان محمومتين ، وتلوحان مبتسمتين تحت عمارة منديلها المعقود حول عنقها •

ونهض المتسول ، الذى لا شك أنه أبوها ، متدثرا بقطعة من قماش مشمع خيط مع مربعات من جوخ عسكرى. انه يحمل الخبز والسمكة باحدى يديه ، لا يعرف ماذا يصنع بهما . وصفعت الريح أنفه بالياقة السائبة من ذلك القباء الغريب الذى يرتديه . وكانت السحب تجرى فى السماء الماطرة سريعة متلاحقة . ان البنت الصغيرة لا تريد أن تأكل أو لا تستطيع ذلك •

الأنظار كلها تتجه الآن الى الأب .

قال بلهجة شاكية :

ـ ما العمل ؟

فلم ينبس رجل من هؤلاء الشهود ولا نبست امرأة بكلمة واحدة. ومضى عمر راكضا ، يدخل الشارع الذى أمامه . وجرى هنـــالك بخطوات واسعة بين الواجهات الشهب المخضلة التى تتلاقى فى هذا المكان . . .

***

الأنوال تخبط وتقرقع . وعمر منكب على عمله شارد اللب ، يشد الخيط كما تشد الامعاء من بطن خروف مبقور . اطار القصب يدور ويسرع فى دورانه ، وكتلة خفيفة تتجمع عند قدمى الصبى .

ان فم الهواء الفاغر قرب السقف مع قضبان من حديد ، ينشر فى الكهف ضوءا شاحبا . الحائكون يتحركون ذات اليمين وذات الشمال فى العتمة المتلبدة ، ووجوههم الصفراء تترجح على وتيرة واحـــدة لا تتغير .

ـ نعم ، كانوا ينظرون الى الأمور نظرة صحيحة ، فمـــا كانوا بالمتكبرين .

ترجعت كلمات باصقالي في الكهف ترجعا حزينا . ان فيها حنينا قويا . ولقد قال منذ لحظة ، بتلك النبرة نفسها : « كانوا لا يزالون يحترمون عمل البشر » .

أن الحائكين يقومون بعملهم في حركات سريعة . وكان العامل العجوز يزود بالسداة ، في اعمق ركن من الكهف ، مواسير القصب التي يمتلىء بها صندوق فاغر الى جانبه . أن دولابه يصر صريرا لا يتعب ، فصوته أشبه بصوت قدر كبير تغلي . لا يزال باصقالي يتكلم بعبارات موجزة تتخللها فترات طويلة من الصمت . قال صحيح أن الناس في الماضي لم يعرفوا القطار ، ولا السيارة ، ولاغير ذلك من عجائب هذا العصر . ولكن العمل كان في ذلك الزمان بركة من البركات . كان المرء يكسب من المال اكثر مما يستطيع انفاقه . وكان أرباب العمل اناسا كراما .. وكان كل شيء زهيد الثمن .

أنعمر لا ينتبه الا الى هذا الصوتالمتصدع . أن أقوى اثر احس به في اولى أيامه هنا أنما هو الاثر الذي أحدثه في نفسه باصقاليهذا، بوجهه المتقلصالمحمر وانفه المكسور الذيتقشره نظارتان اهليلجيتان، وعينيه الدامعتين ، المضطربتين تحت العدستين الكثيفتين ، المبتهلتين كعيني كلب لا صاحب له . ان صوته النحيل الذي يخرج من فمه الاجوف المختفي تحت لحية بلون الفضة ، يأخذ بمجامع قلبك ، فما يتركك بعد ذلك أبدا .

لم يفهم الصبي كلمات العجوز . هل يمكن أن يكون فيمثل هذه الحاجة الشديدة الى الاحترام ؟ نظر اليه عمر ، ونظر كذلك الى الحائكين ..... هل يمكن أن يكون هؤلاء أيضا في حاجة قوية الى الاحترام ؟

وجالت في ذهنه فكرة غريبة . قال لنفسه : « لعلنا ندخل نحن أيضا في عداد هؤلاء الشحاذين الذين يملأون المدينة . الا أن هيئاتهم لاقل من هيئاتنا هولا ! نحن هنا ، والناس فوق رءوسنا تسير » ..

وقطع عليه عكاشة تأملاته . قال :

— ولى ذلك الزمان وولى أهله .

قال ذلك ومسح جبينه بكم قميصه ، ثم سحب الوتد الذي يجمد اسطوانة النول ، واخذ يحاول أن يرى باصقالي .

— لقدأصبح اصحاب العملاشدبخلا ، وأشدقسوة بوجهخاص،منذ صاروا يحاولون ان يجمعوا بأقصر وقت ممكن مالا ينافسون عليه

أولئك الذين لا يكسبون منه الا قليلا .

قال ذلك وأدار اسطوانة النول دورتين . سر عمر من سماع صوته هذا الذى يخرج من صدره مليئا . ان عكاشة هو ذلك العملاق الكريم الذى نفحه بقطعة من الخبز وقليل من الزيتون فى أول يوم من أيام عمله بالمعمل .

أجاب الرجل العجوز :

ـ لقد غضب الله علينا ، ففسد كل شيء .. ازداد الفقير فقرا ، وغلا ثمن الخبز ... هذا هو الامر ...

اخذ أحد العمال يحزق على حين فجأة . هذه هى الطريقة التى يعبر بها حمدوش عن مرحه . لكأنه يتفرغر . عرف عمر ذلك .

وكما يربت المرء براحة يده على ظهر بهيمة طيبة ، اخذ عكاشة يضرب سمط السداة امتحانا لحسن انشدادها . وهز رأسه كأنه لا يجد ما يجيب به عن ذلك الكلام ، أو كأنه ليس هناك ما يقال فى مثل هذه الحال .

قال مساعده حسين طرف مدمدما :

ـ النهاية ... أسأل الله ان يكتب لنا الحج الى مكة ! ...

فتمتم عكاشة يقول فى ذهول ، كرجع الصدى ، وهو يربط الخيط :

ـ آمين ..

استأنف الحائكان الجالسان الى نول واحد ، عملهما . ففى سلسلة من الحركات المحكمة ، يستقبل عكاشة المكوك الذى يقذفه اليه حسين طرف ، فيشد خيط الصوف الى وراء ، ثم يضغط بأصابع قدمه على دواسة ، ويقذف بالمكوك الى الجهة الاخرى . وبعد ذلك يخبط بالمشط خبطتين قويتين قصيرتين فتتلاصق خيوط اللحمة . ويعود زميله فيقيس من الخيط طولين .

أن عكاشة ، بما فى حركاته من مرونة وقوة ، يذكرك بمـــدلك من المدلكين الذين يعملون فى الحمامات العامة . وصدره العريض الذى يشبه قرمة من قرم الجزارين ، لا يغطيه الا قميص من قماش مخطط ، يتدلى على سرواله كأنه دراعة . أن لحيته الشعثاء المفروقة تطامن من شعورك بالخشونة التى تتجلى فيه وتجعلك من أمرك فى ارتباك . ان العناد الذى يظهـر فى عينيه ويغشيهما بالضباب لا يشتمل على مرارة بل على حزن . انه لواضح أن قلب هذا الرجل يختنق اختناقا .

قال مولاى بو انور مستفهما ، وهو يعرق ويلهث :

ـ فيم تتكلمون ؟

ونظر فلم يظهر فى وجهه المهدم ظل لفكرة .
وكان الجواب ان ارتفع صوت اشبه بالصوت الذى يخرج من حك عود ثقاب ، ارتفع هذا الصوت يقول :
– غريب .. أنه لا يفهم عن أى احترام أتكلم .
ادار مولاى بو انور حدقتيه . أنه يلهث كالمختنق . نظر الى عيون رفاقه يبحث عن جواب .
– نعم لا افهم ...
فتدخل عكاشة يقول :
– العم باصقالى يتكلم عن الاحترام الذى كان يحمله أصحاب المصانع للعمل الذى تقوم به .
فزال عن عينيه السوداوين العميقتين ذلك الاتقاد الخفى الذى كان فيهما ، انهما لتكادان تبدوان الآن مرحتين .
ولم ينقطع مولاى من اللهاث . انه يعانى من مرض الربو ، وتنفسه يسمع من بعيد . تهدل طرفا فمه من الدهشة ، وظل على هذه الحال مدة طويلة . قال :
– لا افهم ...
ثم عاد يعمل وهو يكبح تنفسه ، دون أن تذهب عنه دهشته .
قال باصقالى من آخر الكهف المعتم :
– غريب ..
وأطلق ضحكة ذات صفير :
– انكم لا تزالون شبانا والحق يقال .
وضاعت هذه الكلمات فى ضوضاء المصنع ، ولكنها لم تفت بعض الآذان .
صاح أحد العمال يسأل :
– لا تزال ماذا ؟
– لا تزالون شبانا ..
– **شبانا ؟**
– أصغر سنا من أن تفهموا هذا الأمر .
– من أن نفهم ماذا ؟
– من أن تفهموا ما كان يشعر به أرباب العمل من احترام لعملنا .

***

لا تسمع الآن الا حركة المكاكيك تذهب وتجىء سريعة ، والا اصطفاق أمشاط الانوال بغير انقطاع ، أو الصوت الرتيب الهادىء

الذى يحدثه دوران مغزل باصقالى . الحائكون مكبون على عملهم ، حفاة الاقدام ، وهم يرتدون قمصانا وسراويل مهترئة مبقعة . انهم يعملون على أنوالهم فى همة ونشاط وقد اكتست وجوههم تعبيرا قاسيا مستغلقا .

وكان عمر غارقا فى تأملاته ، قد نسى كل ما يحيط به . نسى الجحر المظلم العفن والعمل الذي تقوم به يداه كالتين .

وفجأة احتد دلو ، فقال معولا :

— افهموا كما يحلو لكم أن تفهموا .. رتبوا الاشياء على ما يشاء لكم هواكم .. صدعوا رءوسكم كما تريدون .. فالامر هو هذا ، ولن يكون غير ذلك .

قال ذلك ثم تأتأ ونطق بعبارات مفككة ، بل ولفظ شتائم ضخمة . وكان لابد له بعد ذلك أن يسكت ، لان المصنع كله قد لاذ بالصمت .

وكان حمزة ، الى ذلك الحين ، يراقب هؤلاء واولئك فى هدوء ، فقال عندئذ .

— انكم تتناقشون ، وتحتدون ، وتتناقضون ... فمن أجل ماذا ؟ أمن اجل ان تجدوا آخر الامر انكم متفقون ؟ انكم اذن لتتعبون السنتكم سدى .. ماذا يجدينا ان نتساءل عن أرباب العمل فى الزمان الماضى هل كانوا يحترمون عملنا او لا يحترمونه ؟ اننى القى عليكم هذا السؤال : ماذا ينفعنا أن نعرف هذا الأمر . . اليس أجدر بكم أن تنظروا فى احوالكم ، اليوم ؟

وأردف يقول وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى ، ويتمهل فى كلامه :

— ثقوا أنها أحوال يرثى لها !

فالتفت حمدوش نحو باصقالى بحركة قوية ، وصاح يقول له :

— هيه .. هل سمعت ؟ ما الذى ترجوه من احترامهم ؟

وتوقف الشاب الاحمر عن الكلام . أن ابتسامة حادة تشد شفتيه . وحين قرر أن يستأنف الكلام ، زفر وقال :

— انت عجوز !

فأجاب الصوت الجاف مرددا :

— عجوز ؟ لم يبق لى الا ان أفطس ؟

وعلى أن باصقالى احتج على هذا النحو من الاحتجاج فقد صمت واطرق .

— باصقالى ..

— ماذا ؟

ـ انت عجوز جدا ، نعم ...
ـ عجوز جدا ؟
قال حمدوش مؤكدا :
ـ لم يبق لأجلنا الا قليل . نحن على وشك أن نثب الوثبة الكبرى . وما الذى جنيناه من هذه الحياة ؟ يمكن أن نقول : لا شيء .
وردد يقول وهو يشعر بما أثاره من اهتمام :
ـ لا شيء ...

ورنح رأسه يمنة ويسرة . كان يبدو عليه انه لم ينه كلامه . وكان باصقالى ينتبه اليه أشد الانتباه ، وكذلك كان الآخرون .
ـ جائزاننا عرفنا بضع لحظات من سعادة ، ولكن ما أكثر الايام السود الى جانب ذلك ! لقد حرمنا من كل شيء . ولم نوق أى نوع من انواع الكروب والمصائب . قطرات من فرح ، وبحر من مرارة ..
قال هذا الكلام وهو يبرز كل كلمة ، ويتلبث على كل مقطع .
ـ وفى هذا كله ليس هناك الا شيء واحد يزعجنا ، هو أن ارباب العمل لا يولوننا قدرا كافيا من الاحترام ! ...
أظلمت نفس عمر على حين فجاة . أن هذا الشاب الاحمر يشرف نفسه كرها ليس له حدود . ولم ينبس الآخرون بكلمة .
قال العجوز معترضا بصوت خافت :
ـ نصيبنا فى المثوى الآخر .
فانطلق حمدوش يضحك ضحكا خافتا ، ويردد بصوت عال واذعان كاذب :

ـ فى المثوى الاخير ..
فقال باصقالى يحتج فى ضعف :
ـ لا خير فى هذه الحياة الدنيا ، ولا ..
ولكنه ما ان بدأ عبارته حتى اختنق . اكتسى وجه العامل العجوز صورة طفل مؤنب ، واستطال انفه حتى سقط على فمه الفائر ، ولم يستطع أن يمسك عن ذرف الدموع .
قال قوطى الأمين مدمدما بين أسنانه :
ـ زنادقة معلونون ...

الامين لا يزال يحرك شفتيه مدمدما بكلمات وكلمات .

أنه اطحل اللون عريض الصلبين ، يحمل وجهه المتأنى العابس سنيه الخمسين . ان المرء لا يمكن ان يخلط بينه وبين أى رجل من الرجال العاملين فى هذا المصنع . عباءته المصنوعة من لباد أزرق شاحب ، المزينة بالضفائر ، وسرواله العريضان المصنوعان من قماش سميك أبيض ، وعنايته الشديدة بنظافة هيئته خاصة ، كل ذلك يتعارض تعارضا قويا مع مظهر سائر العمال .

ردد الامين يقول مرات كثيرة :

— مصيركم الى جنهم ، مصيركم جميعا الى جنهم .

ولكن لم يكترث بكلامه احد . وحبذ عمر هذه القسوة منه ، رغم أن الرجل لم يكن محببا الى القلب ، ورغم أن عمر كان لا يستطيب كثيرا خلاله القديمة البالية .

وقد أرسل عمر بعد بضع لحظات فى عمل من الاعمال ، فلما عاد وجد الامين عند مدخل الكهف مقعيا أمام طاسة من الماء يتوضأ ، فمضى اليه رأسا ، وقال له هامسا فى أذنيه وهو يضع يده على كتفه :

— هم يسخرون منك يا الامين ، أما انا فوالله ما فعلت ذلك قط ..

فرفع الحائك حاجبه ، وكال الصبى بطرف عينه . ان الريح العاصفة التى كانت تكنس الشارع الصغير قد صبغت وجهه السمين المتحبب بلون أزرق . وهز الامين كتفه التى وضع عليها الصبى يده ، وطرده .

— كفاك لهوا .. هيا امض الى عملك ..

فذهب عمر مجروح القلب .

ومضى الامين فى وضوئه ، وقد رد عمامته حتى صارت عند النقرة ، فظهرت جمجمته يعلوها تاج من شعر محلوق بالموسى . غسل وجهه ، فساعديه فقدميه ، ثم مر بيديه المبلولتين على رأسه ولحيته . حتى اذا فرغ من وضوئه عاد فنزل الى الكهف ، وارتدى ثيابه ، وعقد الازرار حتى الذقن ، وجعل يصلى ساكنا لا يهتز ، فهو تارة قائم ، وتارة ساجد . وظل يصلى مدة طويلة .

كان عمر يرقبه من الركن الذى هو فيه . لقد سبق ان رأى كثيرا من الناس يصلون ، ولكنه لم ير فى حياته احدا يصلى كما يصلى قوطى الامين . ان فى وجهه بلاغة خرساء قلما يرى المرء مثلها فى وجه غيره . ان هذا الرجل القاسى يبدو بائسا كل البؤس وهو يتعبد .

فلما شارف على الانتهاء من صلاته ، التفت براسه الى يمين ثم الى شمال ، فلمح عمر ، فهز رأسه هزا خفيفا لا يدرك . كان وجهه قد اطمأن ، رغم انه لا يزال مطبوعا بطابع الالم .

وما ان جلس الى نوله حتى اشار الى عمر ان يأتى اليه ، فلما اقترب منه الصبى قال :

ــ اصعد الى السقيفة فائتنى بمكوك جيد . انك نشيط كقرد ..

فوثب الصبى على السلم راضيا ، ولكن ماان وصل الى آخر درجة حتى امسك احد بساقه من تحت ، فتشبث الصبى بحافة السقيفة واخذ يصرخ قائلا انه يوشك ان يسقط على الارض . كان الشاب الاحمر يشده فى اصرار وعناد وهو يضحك .

ــ قل : « مياو .. انا قطة » ، والا لم اتركك .

ولكن عمر استطاع ان يتملص منه بهزة قوية ، وقال له يهدده فى غيظ :

ــ لألطمن بقدمى بوزك ..

انه لا يزال حاقدا عليه منذ مدة . انه لم ينس كيف عامل حمدوش صاحبه باصقالى .

وانصرف عنه حمدوش واصبح لا ينتبه اليه ، والتفت الى عباس صباغ يقول له :

ــ انك لشر رفيق ان لم تمض فورا فتشترى بضع فطائر صغيرة طيبة ، تولما لنا .

قذف الصبى للامين باربعة مكاكيك او خمسة ، من اجل ان يختار الحائك منها المكوك الذى يرضيه ، ثم نزل . سأله الرجل عندئذ :

ــ من انت يابنى ؟

فتحير الصبى ولم يعرف بماذا يجيب .

ــ .. اقصد .. من ابوك ؟

فاحمر وجه الطفل ثم لم يلبث ان استرد سمرته ، وقال متمتما :

ــ لقد مات ابى منذ مدة طويلة ، ولست اذكره .

لماذا هذا الاستجواب ؟ ان الامين هو اول شخص فى المصنع يعنيه ان يعرف من هو هذا الصبى .

ـ انت اذن يتيم ؟ كان الله معك .
قال له الامين ذلك وهو يمسح بيده راسه .
ـ ماذا كان اسم ابيك ؟
وانقضت برهة من الزمان قبل ان يتهيأ الصبى للجواب .
ماذا كان اسمه ؟
والتقت نظرات عمر بنظرات الحائك . قال :
ـ احمد دزيرى .
ـ آ . . .
هتف العجوز بذلك ، ثم اضاف بعد لحظة قصيرة من تفكير :
ـ الحاج بن على هو اذن جدك . . . أأنا مخطىء ؟ رحمه الله انى كان الآن .
وقطب حاجبيه .
ـ نعم كان حائكا من أمهر الحائكين . . .
وعاد الى وجهه شيء من بشاشة ، وانبسطت اساريره كأنما رغم ارادته . أن وجهه المحاط بشاش ناصع البياض يغطي اذنيه ، يعبر عن يقظة ذكريات بعيدة فى خياله . قال :
ـ أنت اذن ابن أحمد دزيرى ؟ لقد كان أبوك رجلا شريفا ، ولكن كانت له أفكار ، حمانا الله . . . أفكار . .
قال ذلك ورفع ذراعيه علامة الحيرة والارتباك ، وكظم تنهدات همت ان تخرج من صدره على غير ارادة منه .
ـ كان أبوك يقول كلاما لا يمكن أن تسمعه اذن رجل مسلم . كان يدعى أن جميع الناس اشباه متساوون . . فكيف يصح هذا الكلام ؟ انهم متساوون حقا أمام بارئهم . . ولكن فى الحياة . . (وهز راسه بحركة انكار) . . هذا مستحيل . .
وغشى الحزن نظرته ، وعاد قاسيا صلبا كما كان .
ثم قال بصوت واضح بعد لحظة من صمت :
ـ كان أبوك يعترض على الشريعة الحنيفة ، دون أن يعلم ذلك . ماذا أقول ؟ . . لقد مات .
وتابع يقول بتلك اللهجة الوقور نفسها :
ـ أنا اتكلم ، وانت فى اغلب الظن لا تفهم ما اقول . ولكن هل انا نفسى الا خاطىء مسكين ؟ اللهم ارحم عبادك . . لم يكن أبوك بالشخص الوحيد الذى يفكر هذا التفكير . أنا نفسى آخذ فى التفكير أحيانا . . فيضل عقلى ، ولا افهم من الأمور شيئا . يارب ، يارب ، ما هذا

الجنون الذى يستبد بعقول الناس فى هذه الأيام ، فكأنهم لا يؤمنون بوجود الله .

والقى نظرات بائسة على ما حوله ، ثم أمسك عن الطعام . ظل خلال مدة طويلة نهبا لاضطراب محموم ، وتجهم وجهه وبان فيه الهم ، فلما سقطت نظراته على الصبى مرة أخرى ، بدا عليه أنه يدهش لرؤيته . وتنهد فى عناء مرات متوالية ، ثم قال للصبى يسأله :

ـ ماذا كنت تعمل قبل أن تأتى الى هنا ؟

ـ كنت أذهب الى المدرسة .

ـ ها .. أنت تعرف القراءة والكتابة ؟

ـ نعم .

ـ وتعرف القراءة والكتابة بالعربية ؟

ـ لا .

ـ كيف لا ؟ أتجهل لغتك يا بنى ؟

ونظر قوطى الامين الى الصبى متفرسا مدهوشا ، وصمت لا شىء يمكن أن يخرجه فى هـذه المرة عن صمته . وعاد الصبى الى عمله ، وقد أقلقته تلك الكلمات الاخيرة التى قالها له الرجل العجوز . وأمام مكبه تذكر المدرسة وتذكر دروسه فقال لنفسه : « ما كانت حاجتى الى هذا كله ؟ » .

— ١١ —

كان المطر قد عاد يقرع زجاج النوافذ . الريح تدندن فى الشارع الصغير أغنيتها الرتيبة . الأقدام التى تخوض فى الوحل وبرك الماء يصل صوتها الضعيف الى الكهف . والأنوال الخمسة التى يواجه اثنان منها الثلاثة الاخرى ، تترجج ترجج دواب ثقيلة . والمكاب تدور فيخرج من دورانها صوت أجنحة تطير : فر .. فر ..

قال باصقالى :

— انهم اليوم لا يحترمون شيئا ولا يحترمون أحدا ..

فلم توقظ كلماته أى صدى . المسدية العملاقة تمد أذرعها الى قبة الكهف ، قرب عمر ، كأنها تتجه بالدعاء الى شخص أو الى شىء لا يظهر . وعدد من المكاب يتداخل فى هذه الزاوية من الكهف ، متراكما بعضه فوق بعض فوضى ، مرميا على صندوق من خشب نخر ، وعلى هذا الصندوق نفسه ، المتقشر الدهان ، وضعت كدستان من الأغطية وفى آخر الكهف أعمدة سميكة من خشب البلوط فلا ترى فى هذه القمة الا رؤية غامضة ، فعلى الاعمدة تقوم السقيفة التى يقبع تحتها باصقالى مع دولاب الغزل الذى يديره . ان المرء لا يرى من هذا العجوز الذى يعمل فى تكبيب الصوف الا بياض عمامته .

قال عمر لنفسه وهو يحدق الى هذا الشبح : « حزين ومضحك . أى احترام ينتظر من هؤلاء الناس ؟ » . وارتخى انتباهه فجاة ، وتذكر البنت الصغيرة التى رآها فى صباح امس ، فاضطربت نفسه مرة أخرى ذلك الاضطراب الذى غزاه حين كان فى طريقه الى المصنع .

استمر باصقالى يتحدث عن أرباب العمل الماضين الذين كانوا يحترمون عمالهم ، ونعى على أرباب العمل فى هذه الايام أنهم نسوا كل شىء . ولكن صوته لم يلبث ان انطفأ كما ينطفىء قنديل نفخت عليه .

ولم يتول أحد قطع الصمت الذى خيم على المصنع منذ تلك اللحظة أسرع عمر فى عمله . انه يدير مكبه بمزيد من العجلة .

ثم أخذ باصقالى يرتل آيات القرآن ، فلم يلبث قوطى الامين ان أخذ يصاحبه في الترتيل شيئا فشيئا . ان صوت باصقالى خشن عصبى . اما صوت الأمين فهو سيال عميق يدرك المرء انه نال من التدريب قسطا

لم ينله الآخر ، والصورتان يتساعدان الان ويتساندان ، حتى لقد صارا فى آخر الامر كصوت واحد يغرق الكهف فى جو من الصلاة والدعاء ..

فر .. فر .. أن عمر ما ينفك يشد خيط الصوف ، دون ان تحس يداه المتورمتان الضاربتان الى لون البنفسج (لكأن المرء حين يراهما يرى باذنجانتين) ملمسه الناعم • ان أفكارا حزينة قلقة تخب فى رأسه وان قشعريرات تجرى فى فقرات ظهره . واسنانه تصطك على ايقاع نواح المكب وهو يدور وينخر .

اكتست وجوه جميع الحائكين هيئة الجد والتعب • والرأس الكبير ذو اللحية ، رأس عكاشة ، يهتز وقد غشت عينيه ظلال متوحشة قاسية • والهمهمة الراعشة التى تهدهد المصنع كله ، ما تنفك تتخللها شتائم يلفظها قائلوها بصوت خافت •

غاب وعى عمر عن العمل الذى يقوم به . ظل مدة طويلة من الوقت سادرا لا يدرى الا الله فيما كان يفكر . حتى اذا ثاب شعوره حملت اليه أنسام الكهف رائحة نتنة قوية اشمأز منها اشمئزازا شديدا •

العمال يدفعون المكاكيك ويخبطون الامشاط وقد تجهمت وجوههم وصمتوا لا ينبسون بكلمة • والضربات تدوى معا كأنها عدة مداق تهوى فى آن واحد ؛ وقد بلغت من السرعة والاحكام انها لا تكاد ترى فى هذا الضوء الضعيف الساقط من عين النافذة العالية الصغيرة • ومن حين الى حين ينتصب احد الحائكين ليجفف وجهه الغارق فى العرق .

مرة اخرى شعر عمر بحاجة قوية لا تغالب تحمله على الفرار بفكره من الكهف الى الصباح البارد والشوارع المضطربة بالناس . ها هو ذا وجه صغير غارق فى عينين واسعتين يبرز من الظل الكثيف ويخطر امامه ويبتسم له . يا لها من ابتسامة حزينة ! ويكبر الوجه فجأة ويستحيل الى ظل كبير مفرط فى الكبر . نظر عمر حوله : ان المصنع غارق فى حمى صامتة ؛ ونور النهار يلطو تحت القبة . ضربات المكاكيك وخبطات الامشاط تتتابع متناوبة •

فى هذه اللحظة زفر مولاى بو انور يقول بغير صوت :

— انتهى .. لا أستطيع ..

مد عمر اذنه : ان أنات ضعيفة مكظومة تصل الى مسمعه ، ولكن الأنات ما تنفك تتسع شيئا بعد شىء وتستحيل الى انتحاب كأنه يخرج من باطن الارض • ان مولاى يتأوه حتى لكأنه يشهق باكيا •

بحث الصبي عن نظرة عكاشة ، ولكن عكاشة كان قد استند ببطنه الى اسطوانة النول ، وخفض رأسه متشاغلا .

انطلق باصقالي يقول فجأة بصوته الحاد

— هيه هيه ، يا شقي ، يا غبي ، انظر ماذا صنعت وانت تتأمل الدوام غافلا ..

فنظر عمر فرأى المصيبة ، فأرخى الخيط الذي كان يشده بيده . انه في اثناء ذهوله قد ترك كومة الصوف تتشرب خيوطها عند قدميه .

كان لباس صباغ على وشك ان يحتاج الى غزل ، فأخذ يرغى ويزبد وقرع عمر تقريعا شديدا رغم انه رتب خيوطه وتخلص من الورطة بسرعة .

- ١٢ -

كان حمدوش راقدا على رزم من الصوف ، فنهض نصف نهوض ، ونظر فى الفراغ أمامه ، وهتف يقول :

ـ انه لشقاء أن يعيش المرء مع اناس مثلكم ..

وظل ينظر من غير أن يرى ، كمن يسير فى نومه .

ان الحائكين يتمطون ويتثاءبون هنا وهناك فى الكهف ، مستسلمين لاسترخاء فترة الظهر ، ولكن بعضهم لايزال محتفظا بهيئة الحنق فى اثناء الراحة . لم يتنازل أحد فيكترث اى اكتراث بوقاحة هذا الشاب الاحمر ، لا ولا بدا على أحد انه سمع كلامه . وظل حمدوش جامدا على وضعه ذاك الذى يشبه ان يكون وضع انسان يحلم ، ثم لم يلبث ان تنهد وانقلب على رزم الصوف التى كان راقدا عليها .

ولم يتحرك بعد ذلك قط . فكان يمكن ان يظن المرء انه نام لولا أن فرط سكونه كان يشى هو نفسه بأنه فى حالة عصبية .

عاد عدد من الحائكين الى انوالهم . واخذت الاحاديث تتلاحق فى المصنع كله . على أن الذين أطالوا فترة الراحة قد آثروا أن يظلوا خارج المناقشات وقد استأنف الصبية عملهم أول من استأنفوه . ان عليهم أن يهيئوا الصوف للانوال التى ستأخذ فى الحركة بعد قليل .

تثاءب عباس صباغ فى بطء ، وقال :

ـ هناك شيء يصدع رأسى منذ مدة طويلة . اننى غير راض عن نفسى لست افهم ما الذى بى . ومع ذلك لاأزال أعيش كما عشت دائما ، لم أتغير . اننى غير راض .

ان عباس صباغ يعمل مع عثمان الاحمر الملقب باسم عثمان الموت : لقد بدآ يعملان كلاهما منذ بضع دقائق . قال عباس كلماته تلك ثم توقف عن الكلام وعن العمل جميعا . انه يفكر ساكنا جامدا وقد فرغت عينه من كل معنى .

ـ أصبحت لا أؤمن بشيء أصبحت لا أؤمن بما أعمله . هذا هو الامر .

قال ذلك ودهش هو نفسه من هذا الذى أعرب عنه ، وتابع يقول فى اندفاع :

ـ يقول كل واحد مثلا ان على الانسان ان يحب أخاه الانسان .

فمن منا يعمل وفقا لهذه القاعدة ؟ من منا يحترم جاره ؟

قال ذلك والقى على رفاقه نظرة سريعة . ان لعباس صباغ فما كبيرا ذا أسنان ضخمة ، وعينين بارزتين عكرتين لا تستطيع ان تحدد لهما لونا ، ووجها متكسر الزوايا . لقد انتصب رافعا رأسه ، وكأن نظرته تبتلع كل ما تصادفه .. ان الصبية يخشون مزاجه الحزين .

ـ من منكم يستطيع مثلا ان يشرح لى هذا الامر : انني احب الحياة عامة ، فلماذا احتقر اذن حياتي وأكرهها بكل ما اوتيت من قوى ؟ هه ؟ ..

قال ذلك وتظاهر بالاهتمام فجأة بشقة القماش التي فرغ من نسجها هو ومساعده منذ قليل ، فلم يترك عيبا صغيرا من عيوبها الا فحصه فحصا دقيقا .

واستشاط باقى العمال غيظا من اوامر شول ، وقبلوا اخـيرا ان يقوموا الى انوالهم .

وفيما كان حمدوش يمضى الى مكانه ، حدق الى عباس، ثم بصق فى احتقار .

واستأنف عباس يقول دون ان يحفل به :

ـ يستحى المرء ان يقول (وكان قد اخذ يفحص الحجرة) ان حياتنا تبلغ من الضيق أن بقة لايمكن أن تحتملها .. نعم ، انها لحياة سيئة هذه الحياة التى نعيشها ، لا جدال فى هذا .

وظهر عليه الانزعاج فصمت ، ثم هز راسه ، وأضاف يقول :

ـ هناك لحظات لا ينصب المرء فيها على العمل بقلبه ، فاليـدان تعملان ، ولكن الفكر شارد فى مكان آخر ، ويشب القلق عندئذ فى النفس ، فما تطيق بعد ذلك صبرا . يقول بعض الناس: « الانسان هو كيت وكيت » . الانسان .. الانسان .. ان افواههم مملتئة بهـذه الكلمة . الا قولوا ايها الاصدقاء : من هو الانسان الذى يعنونه ؟ أريد أن أعرف من هو الانسان الذى يعنونه ! هل يعنون بيتان ؟ هل يعنون روتشيلد ؟ أو هم يعنوننى انا ؟ يجب أن نقول كلاما واضحا ؛ يجب الا نخلط جميع الاشياء فى كيس واحد ، ولا تحاولوا خاصة أن تلقوا فى روعى أننى شبيه بذلك الذى يملك نصف مقاطعة .. لا ولا تحاولوا ان تقنعونى بأننى اتعذب لاننى خلقت للعذاب . اننى انسان كأى انسان آخر ..

وازداد ارتباكه من شعوره بأنه يعبر عن كل ما يحسه . ان عباس لا يجيد الكلام على نحو واضح . كان اذا قال شيئا وجب ان يفهم

الناس منه شيئا آخر .. كذلك كان شأنه دائما . وتململ الحائكون الذين كانوا يصغون اليه . انهم يلقون عليه منذ الآن نظرة ضجرة لا تبشر بخير .

قال حمزة منكرا :

ــ انسان كأى انسان آخر ؟ كلا .

فنظر عباس الى معارضه ذى الوجه السميك . بدا عليه انه يضيق ذرعا بهذه الملاحظة التى تحمل اليه تكذيبا بوجسه منذ مدة طويلة .

وظل يحدق اليه تحديقا غريبا .

قال حمزة :

ــ ما نعرفه عن الحياة هو اننا لسنا بشرا كسائر البشر ..

ان حمزة يتكلم بصوت عال ، ويبرز كلماته مستقلة واضحة . انه من ناحية الجسم يشبه ان يكون كتلة واحدة : ضخم الوجه ، عالى المنكبين ، سميك الاطراف . لقد تجاوز الاربعين من عمره ، وهو مع ذلك يحدق الى الناس والى الاشياء بنظرة شهباء ضاربة الى زرقة ، نظرة خفيفة ، نافذة . وله لحية كثيفة وخطها الشيب فهى تضفى عليه شيئا من مهابة ، على ان هيئته عادية بوجه الاجمال .. كان قد نض عن رأسه طربوشه المصنوع من أحمر اللباد ، ووضعه الى جانبه ، معرضا للهواء جمجمته الصلعاء من الجبين حتى القذال .

كان عمر ، كغيره ، لا يجهل ان حمزة قد قضى فى السجن سنين طويلة ، وان هناك ظلا يغشى هذا الامر . ما من احد يعرف حقيقة السبب الذى سجن من أجله . ويقول بعضهم ان الحبس قد بلبل أفكاره .

قال أيضا :

ــ نعيش العمر كله بين انوال ، فى كهوف .

وكان عباس يلاحظه سادرا يفكر .

ــ ان نفوسنا كهذا الكهف الذى نعيش فيه . الناس فى اعلى احرار ونحن ههنا عبيد . ما زيادة قرش على أجر اليوم بالهدف الذى يمكن ان يحفل به عبد .

فدمدم عباس يقول :

ــ حقا .. ليس الحصول على زيادة فى الشقاء بالامر الذى يمكن ان يهم اناسا يريدون ان يتحرروا من سجنهم ، اناسا لا قيمة لهم ..

كان عمر يصغى . نعم ، تلك هى حقيقة الحال . ولكن ما بال هؤلاء الناس يظلون ساكنين كالحجارة .

وتابع عباس يقول :
ـ حقا .. ما قيمة المطالبة بكسرة خبز ؟
واضاف حمزة :
ـ ان اناسا وصلوا الى حد اصبحوا فيه لا قيمة لهم ، وصاروا اصفارا ، لا يمكن ان يفعلوا الا شيئا واحدا .. هو ان يطالبوا بكل شيء .
فأمن عباس صباغ يقول مصرا على فكرته :
ـ لاقيمة للمطالبة بشيء ما ، لاقيمة للمطالبة بمائة قرش في اليوم .. هذا كله لا قيمة له ..
فقال الشاب الاحمر هازئا في مرارة :
ـ لاحظوا أنه ليس يضرنا ان يزيد طعامنا قليلا .
فلم يلتفت اليه احد .
قال حمزة :
ـ ان اناسا مثلنا هم مقياس كل شيء : هم المقياس الذى يقدر به بلد ، او شعب ، او عالم .
فما كان من الشاب الاحمر الا أن لفه بنظرة هى من نوع الحنق الشديد الذى يحتقن به قلبه ، لفه بهذه النظرة وهو يعض شفتيه .
وتابع حمزة يقول غير مكترث :
ـ لقد وصلنا الى الدرك الاسفل ، فلن تجدينا الطرق العادية من اجل ان نعود فنصبح بشرا ، لابد لنا فى سبيل ذلك من ان نقلب العالم رأسا على عقب ، وربما كان علينا ان نروعه ..
لقد أصبح فى كلامه بطء ، وشيء من الارتداد الى الوراء والرجعة الى النفس .
وعاد يؤكد قائلا :
ـ ان هناك قدرا يجثم علينا ، فاذا اردنا ان نفلت منه ، وجب علينا ان نحطم كل شيء .
قال ذلك وبح صوته مرة اخرى
ـ علينا ان نبدل العالم والانسان .. نعم .. ولكن لابد اولا من هدم كل شيء ..
وخيم الصمت على المصنع . ترك حمزة جملته معلقة ، وهو يحرك يده بحركة احتقار تكنس الفضاء . وغابت نظرة الحائك فى بعيد . ثم لم يلبث ان مال هو ايضا على نوله ، واستغرقه العمل .
فرغ صبر الشاب الاحمر ، فاذا هو يعول قائلا :

ـ انا مريض .
فأجابه شول :
ـ لا يظهر هذا لمن يراك .
ـ لست اعرض متاعبى .
ـ هل لك أن تقول لى ماهى متاعبك ؟
ـ أوه .. لا شيء .. لا شيء الا المتاعب الناشئة عن رؤيتك .. عن رؤيتك فى كل يوم من الايام التى يخلقها الله .
قال له الشاب الاحمر ذلك وهو يرشقه بنظرة مسمومة .
واضاف :
ـ يمينا ان نفسى لتمرض من مجرد النظر اليك . اتفهم ذلك ؟
فرفع شول كتفيه ، وقال :
ـ هيا اعزف على الناى فى الطرقات ، فذلك انجح لك . اما هنـــا فالناس جميعا أهل جد .
فسعل الشاب الاحمر ساخرا ، وعاد يقول :
ـ ليس فى وسعك ان تفهم .. أنت حسبك ان تأكل وان تنام وان ت ...
ـ يا لطيف يارب .. هل لك ان تعيد ما قلت ؟ ..

- ١٣ -

ـ هل تعرف يا عمر ؟ انك اشبه بفروج صغير باضه المعلم .

كان ماجى وعنان قد ترك المصنع منذ قليل . وكان عمر يصعد الدرج مثقل الذراعين بكبب من الصوف صبغت حديثا ، فهو ماض بها الى فسحة قريبة ينشرها فيها لتجف . لقد انقشعت السماء قليلا، فشمس الشتاء تجرى كسلى وراء غشاء من غمام رقيق . ان حمدوش يتفوه بكلام بذىء كهذا الكلام . فما أن سمع الحائكون تلك الالفاظ التى خاطب بها عمر حتى استخفهم المرح ، فأخذت قهقهاتهم تتراكض فى المعمل .

وقف عمر فقال للاحمر ، وهو يرشقه بنظرة سوداء :

ـ فروج أمك .

فدهش حمدوش من الاهانة ، وامطره بوابل من الشتائم .

ـ لسوف أسحقه لك ، هذا الراس القذر .. سترى . اذهب الان ، اذهب ..

ولكن عمر رفض ان يمضى . فقال له حمدوش :

ـ ما الذى يسمرك هناك ؟

فحرك الصبى يده بحركة تحد ، غير أن الفاظا بذيئة تقيأها الشاب الاحمر لم تلبث أن صبغت وجهه بحمرة قاتمة .

فحدق اليه حمدوش بعينين تشبهان عينى ضبع ، واستغرق مقهقها ، فأصغى الصبى الى ضحكه مشمئزا ، ثم خرج يسير فى الشارع الضيق .

فلما عاد ، غافله حمدوش فامسك به من أذنيه ، وجعل يطرق رأسه بقضبان المسدية . حتى اذا افلت الصبى من بين يديه ، أخذ يرشه بسيل من السباب . فاصفر وجه حمدوش ، ورفع قبضتى يديه ، وانهال عليه . دافع الصبى عن نفسه ماوسعه ان يدافع ، فكان يضرب بيديه فى جميع الجهات على عماية ، بعينه حنق بارد . فاستشاط حمدوش غيظا من هذه المقاومة ، فما كان منه الا ان لطم الصبى على نقرته لطمة بلغت من القوة أن الصبى جار حين هوت عليه كما تجار بهيمة من البهائم .

صاح الحائكون يقولون :
ـ ما بك ياحمدوش ؟ انك توشك أن تقتله .. هل تريد ان تقضى باقى عمرك فى السجن ؟

ان عمر لم يذق طعاما فى ذلك اليوم . اضطربت عيناه . أحس أنه ينهار . ركبتاه تتثنيان وترتعشان . لم يفهم ماذا حدث له . ثم هاهو ذا يهجم على خصمه ، فما هى الا لحظة حتى أخذ الاحمر يموء بصوت أبح :
ـ ارخ يدك .. ارخ يدك ..
لقد تشبث الصبى به وضغط على جوزة عنقه بيد كأنها كلابة . حشرج الاحمر ، وصفق الهواء بيديه ، وهو يتدحرج تحت أحد الانوال . ظل عمر واقفا ينتظر فى وسط المصنع . ثانية ، ثانتين ، ثلاث ثوان . نهض حمدوش مشوه الوجه من فرط الحنق .

صاح الصبى بكل ما أوتى من قوة :
ـ قذر ، غدار ، خائن .
فمال حمدوش عليه ، وقرب وجهه من وجهه . ان حدقتيه تتقدان اتقادا وحشيا . صمد الصبى . وزفر يقول له عند أنفه :
ـ ابن كلبة ..
فاذا بصفعة حارقة ، معمية ، تسقط على وجهه ، فتطرحه ارضا . ولكنه سرعان مانهض من جديد ، فوثب على حمدوش ، وطوق بيديه رجليه ، ثم غرس أسنانه فى ربلتى ساقيه . أعول حمدوش من الالم . وتوقع عمر أن يقتله الاحمر .

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . وما وقع ملأ الصبى دهشة . ذلك ان عكاشة قد أبعد الاحمر بحركة من ساعده ، ودفعه الى وراء ، فتقهقر الاحمر حتى اصطدم بالسلم ، فسقط على درجته الاولى . وانفجر المصنع كله يضحك مقهقها . واستشاط حمدوش غيظا ، فاحمر وجهه احمرارا شديدا ، ووثب نحو عمر . ولكن عكاشة التقطه من ذراعه . فأمسك الاحمر بقبضة عكاشة يحاول أن يخلص ذراعه منها ، ولكنه عجز عن فك عقدتها . فقال معولا .
ـ دعنى ..
تركه عكاشة فانتصب يقف أمامه دون ان يتحرك ، وهو يرتعش شاحب الوجه ، ثم دار على عقبيه ، ونفض الغبار عنه بحركات آلية ، ورتب سترته ، ومضى يجلس الى نوله .

فى آخر النهار صحب عكاشة الصبى ، وسارا جنبا الى جنب . كان الفتى يشعر بشىء من الخوف .

قال له عكاشة :

— ما حدث حدث ، فلا تتكلم عنه بعد الان . ولكن عليك فى المستقبل ان تسلك سلوكا حسنا . وعليك خاصة أن تتحاشى المشاجرات .

وهم عمر أن يحتج قائلا ان الاحمر هو الذى اعتدى عليه . ولكن عكاشة تابع يقول :

— .. والا أدبتك بنفسى . حذار ..

فتأثر الصبى بما كان فى نظرة عكاشة من حرارة المودة ، فعدل عن التشكى .

وأردف صاحبه يقول :

— دعك من الاحتكاك كثيرا بعمال الكهف والا ندمت .

فلم ينطق الصبى بكلمة . حتى اذا قطعا شوطا كبيرا ، وقف عكاشة عن السير ، وقال له وهو يضحك انه قد رافقه مسافة بعيدة ، ولا خطر الان ان يعترض الاحمر سبيله .

ثم أضاف فجأة :

— لقد كنت فى المدرسة ، فلابد أنك تفهم أمورا كثيرة .

قال ذلك وهو يرقب عمر على نحو خاص .

— نعم .. خسارة ان تعمل فى مصنع نسيج . مهنتنا هذه لاقيمة لها .. انظر الى حالى : هذا كل مايمكن ان تبلغه انت فى ذات يوم ، فاذا صرت مثلى بقيت على هذه الحال الى آخر حياتك. فكر قليلا تفهم عنى ما أقول .

قال عكاشة ذلك وابتسم ، ولكن وجهه كان فى هذه المرة مظلما.

— أنظر الى باصقالى مثلا . انه لا يكاد يصلح حتى للقيام بالاعمال التى يقوم بها الصبية .. هه ؟ ومع ذلك فقد انفق حياته كلها أمام النول . أما أنا فآمل أن أفطس قبل أن أصل الى الحال التى وصل اليها . عليك أن تتعلم شيئا اخر يااخى . ثم ان كل شىء سيتم صنعه بالآلات عما قريب . بعد عشر سنين لن يكون هناك حائكون . لسوف ترى فى المستقبل ان ما أقوله لك الآن هو الحق عينه .

وافترقا .

كان الظلام قد خيم . وهذه ريح باردة تهب من الشمال . غير أن عمر لايصغى الا الى الفرح الذى يغنى فيه كعصفور مختبىء .

ان تحذيرات عكاشة قد مست فكره مسا خفيفا فلم تخلف فيها أثرا .

وفى الغداة ، اقترب عكاشة منه ، ووضع يده على كتفه ، قائلا له :

ـ هل الحال اليوم أحسن ؟ هل هدأت ؟

فدمدم عمر بكلام مرتبك ، وهو يضطرب على سرور .

ضحك عكاشة ، قال :

ـ طيب طيب ، هيا ..

عمر يعمل . الكهف يضج بهياج سريع يسرى بغير كلال فى هذا الركام العجيب من الانوال والدواليب والمكاب . عمـــر يراقب الظلال التى تمفمغ وجوه الحائكين . وتمضى الساعات تلو الساعات متشابهة ، كالحة ، تنضح ضجرا لا ينقشع . المكاكيك تفرقع ، والامشاط تلتطم .

لقد أدرك الصبى بعد بضعة أسابيع من الاستنقاع فى هــذه الحفرة ، ما فى حالته الجديدة هذه من جد .

حتى زعيق أمه أصبح لا يشب الا من حين الى حين . صحيح أنها لا تزال تؤنبه ، أو تتظاهر بأنها تؤنبه ، غير ان فرحا قويا قد اخذ يملأ جوانب نفسها .

كان عمر يعود الى البيت فى كل يوم من أيام السـبت حاملا فى جيبه اجر الاسبوع ، وهو عشرون فرنكا ، فما يكاد يضعه فى كف أمه حتى تأخذ تدعو له بصوت خافت :

— الله يسعدك ، شكرا يابنى ..

هذا عمر يحل الخيوط المتفتلة وهو يفكر . فاذا بأغنية نحيلة عذبة تصل الى المسامع من آخر الكهف :

— أواه يا أمى الحبيبة .

ارتعش عمر كأن الجو قد ازداد بردا على حين فجأة . ان زبيش هو الذى كان يرنم بصوت ضعيف . وامتلأ الكهف شيئا فشيئا بالصوت البطىء النحيل الذى لا يكاد يكون أقوى من صفير صرار الليل .. وتبعه صوت اخر ، ثم تبعته اصوات أخرى .. انالغناء يترجح غمامة فى سماء الشتاء . لم يلاحظ زبيش ، الذى كان يحاول أن يسكب فى نواحه روحه كلها ، ما أيقظ حوله من انتباه. وكان وجهه يبدو ، فى بعيد ، ساكنا جامدا كوجه من يحتضر . لعله كان لايعرف هو نفسه لماذا أخذ يغنى . ثم أخذ يلهث . أن أنفاسه تضعف لحظة بعد لحظة . وتنهد أخيرا على حين فجأة :

— آه ...

وتوقف عن الغناء ، واغمض عينيه . خيم الصـمت ثقيـــلا

كالرصاص . غير أن الصبى حاول محاولة أخرى ، فى عزم مستميت فأخذ الصوت الرخيم يسرى من جديد فى الظلمة الخانقة التى تربن على الكهف . ولكن الاغنية مالبثت ان خارت مرة ثانية ، فأمسك الصبى عن الغناء ، ودمدم قائلا :

ـ عبث ، لا فائدة ..

صاح شول يخترق الصمت بصوته الفظ :

ـ هيه .. زبيش ...

فأجابه الصبى المغلوب على أمره :

ـ ماذا ؟

ـ هل نسكر الليلة ؟

ـ آه .. أتمنى لو امتلىء بالخمر امتلاء .. امتلاء ..

لم يقل الاخرون شيئا . انهم أطياف خرساء استبد بها اضطراب شديد .

صاح شول يقول مصطنعا نبرات السكر :

ـ آى .. هات .. املأ الكأس ..

فأضاف زبيش :

ـ هنا .. فى هذا المكان نفسه .. دون أن نتحرك ..

قال ذلك واخذ ينق نقيقا دام مدة طويلة ، وانتهى بتأوه غير مفهوم :

ـ آه .. آه ..

قال حمدوش :

ـ زبيش أيضا مريض النفس .

فقال قوطى الامين ناهرا فى قسوة :

ـ لقد افسدتم نفسه . هذا هو السبب .

فنظر اليه شول يقيسه من الرأس الى القدمين ، ثم كسر عن لثتيه الزرقاوين وقال :

ـ أى اثم اقترفنا ؟ ألا يجوز للمرء أن يمزح بعد الآن ؟

وقال مصطفى رزاق محتجا بصوته الأغن :

ـ النفس لايمكن افسادها . كيف يمكن افساد النفس ؟ انها كهذا النور ..

قال ذلك ورفع نظراته نحو المصابيح المشتعلة المعلقة بأسلاكها.

ثم عاد العمل يجرى فى صمت . ان كآبة قاتمة قد جعلت الحائكين ينكبون على أنوالهم كأنهم صم . نظر عمر الى عينى شول

وهو يبتسم فى سخر خبيث . فاذا هو يشعر بجميع اثقال ذلك العنف الذى كان يرين فى المصنع تنصب عليه . أحس ان غولا من الغيلان التى يراها النائم فى الكوابيس ينشب فى كتفيه أظفاره الحديدية . وما انقضت بعد ذلك ثانية واحدة الا فى بطء رهيب . ان به رغبة قوية خانقة فى أن يصرخ معلنا سخطه على هذه الحياة التى يعيشها ، وصعدت هذه الرغبة حتى صارت على حواف شفتيه

— جاء المعلم يا أولاد ..

ان زبيش الذى يترصد دائما مايحدث فى الخارج هو الذى صاح تلك الصيحة القوية . وما هى الا لحظة اذ بالمعلم يظهر فى أعلى الدرج فعلا . استمر العمال فى عملهم . غير أن بعضهم قد رفعوا رءوسهم فى تردد ، ثم ما لبثوا ان عادوا يعملون فى نشاط محموم .

سأل ماحى بوعنان بلسان متعثر :

— كيف الهمة يا أولادى ؟ يا الفتية الشجعان .. مرحى .. ان الانسان ليفرح حين يرى كيف تعملون ..

وأضاف يقول دون أن يتوقع أحد ذلك :

— حقا لاشىء فى هذا العالم ولا أحد يستحق أن يحزن المرء عليه . ما ينبغى للانسان أن يقلق أبدا . كل شىء الى زوال ..

وحرك ذراعه فى الهواء فى تراخ . وقال عبارات غامضة لها مظهر الكلام الفلسفى أو الاخلاقى — لا يدرى المرء ماهى — وظل ينظر أمامه كمن يحاول أن يتذكر أمرا من الامور . ثم هز يده باشارة مباغتة ، وقال بلهجة قاطعة :

— هيا .. العمل خير من كل شىء .

ثم اجتاز درجات السلم فى وقار وجلال ، وذهب كما اتى : صلبا ثقيلا تؤكد كل خطوة من خطواته مهابة ماينبغى لاحد أن يمارى فيها

قال الأحمر ساخرا :

— المعلم شارب قليلا :

فقال شول مزمجرا :

— كفى هراء ..

الجزء الثانى

- ١ -

ولد الربيع فى ليلة . انبثق انبثاقا مفاجئا : سيول من الضياء تتدفق بعد ذلك الظلام الطويل . المدينة تفتح رئتيها وقد تخلصت من الثقل الذى كان جاثما على صدرها . أوراق الاشجار عادت تنبت على الاغصان السود التى غشيتها رغوة خضراء . والنهار استرد دفئه الجميل . الناس يرفعون أنوفهم فى الهواء متطلعين الى بشائر الخير فى اشراقة الشمس وأولى زقزقات العصافير .

وظهر المتسولون فى أيام الربيع هذه أعجب وأرهب مما ظهروا قبل ذلك . مم عاشوا حتى الان ؟ وكيف ؟ لا يستطيع احد أن يعرف ذلك . انهم يتسكعون فى الشوارع ، وقد اكتست وجوههم هيئة من يتذكر شيئا نسيه منذ زمان بعيد . يسيرون فى حذر ، لا ينظرون الى أحد ، يمسون الناس دون أن يروهم .

وحدث فى الكهف شيء من الفتور . اضطرب النشاط ، واضطربت الاصوات . الحائكون لا يزالون يعملون على أنوالهم فى همة ، غير أن بعضهم أخذ ، على حين فجأة يغنى بصوت جهير . لقد تسللت الى الجو المحصور الخانق نشوة صعدت الى رءوس العمال

ما يكاد يتنفس الصبح حتى يكون عمر قد حمل الى المصنع الصوف المشترى من سوق الغزل . ان سعادة هذه الاسحار الندية المشرقة الباهرة الطراوة تخزه وخزا وكأنها الشوك .

فمتى وصل الى المصنع بدأ عمله فى تكبيب الغزل ، ثم مضى يشترى للعمال ما يطلبون اليه شراءه . ان نفسه الان أقل ظلمة وحزنا . انه يصغى من بعيد الى الاحاديث الفاترة العابسة التى تدور بين العمال ، وهو فيما يشبه الخدر . وهو يسعى بعد ذلك الى بيت ماحى بوعنان فى « باب زير » يأخذ قفة ويتلقى أوامره . انه مكلف بشراء ما يأمره المعلم بشرائه من السوق لبيته . غير انه لم يقم يوما بهذه المهمة على النحو الذى يرضى رغبات السيدة زوجة بوعنان ، فهو ما ينفك يصغى الى انتقاداتها مطرقا فى خشوع .

ومن أجل أن يساعد العجوز باصقالى الذى اصبحت الشيخوخة تعجزه فى بعض الايام عن القيام بأى عمل من الاعمال ، كان يلف

سداة « الطرارة » الرقيقة كناعم الشعر . وبعد ذلك بقليل اصبح يحمل الصوف الى المصبغة ، ويعود به الى المصنع فور اخراجه من مرجله الأسود .

على أنه رغم نهوضه بهذه السخر التى لا تعد ولا تحصى ، لم يكن ليرضى أحدا .

فلابد أن يلاحقه أحد دائما باهاناته وتوبيخه . وقد ألف هو ان يشتم حتى أصبح لا يعبأ بالشتم . غير ان الأمر الذى لا يريده هو اللطمات والمكاكيك التى تقذف الى رأسه . وكان الحائكون يرشقونه ببصاقهم متى اتفق ان جاءت احدى مواسير الغزل التى كببها متشرجة الخيوط .

كذلك كانت الحال .. انهم يفرغون على الصبية بعض ما تراكم فى نفوسهم من حنق . انهم لايكفون عن سبهم .

هذا عمر يحل خيوطا متفتلة وهو يفكر . فاذا حمدوش يلاحظ صمته ، فيقول له ساخرا :

ــ هل غرقت سفنك المحملة بالزعفران ؟

فما يجيبه الصبى ، وانما تزيده كلماته اقتناعا بأن الاحمر غبى غباوة لا برء منها .

ان عمر لا يشعر بالصداقة الا نحو عكاشة الصموت . ان عكاشة يوحى اليه بالثقة . وهو يذهب الى لقائه كل يوم من أيام الاحد فى ذلك المطعم الواقع فى آخر شارع صغير مزدحم بالناس فىالمدينة الواطئة ، فهنالك كان يحلو للحائك ان يحتسى الشاى .

لم يحتمل حمدوش هذا الصمت العنيد فى عمر ، فصاح يقول :

ــ أمر هذا الحيوان الكبير أمر عجيب .. فهو ماينفك يجتر أفكاره وراء رأسه ..

وبعد لحظة ضرب الاحمر الصبى الأشوه زبيش ضربة قوية ، لسبب تافه هو أن الصبى تأخر فى العودة بالماء الذى ذهب يملأ به القادوس من العين التى بالحى . لقد ظمىء حمدوش فلما أراد أن يشرب لم يجد هذا القادوس الذى كان الحائكون يطفئون بمائه ظمأهم .

لاذ زبيش بركن وراء الصندوق قرب عمر ، وأخذ يشهق . أنه منكمش على نفسه ، ترتعش اعضاؤه كلها ارتعاشا شديدا ، وهو يشد على جفنيه شدا مؤلما . حاول عمر أن يواسيه . فسمعه يدمدم بصوت تقطعه الشهقات .

ـ سوف اقتله . فلينتظر .. لاقذفن وجهه بكتلة الحديد التى وزنها رطلا .

سأله عمر لماذا يدع لغيره أن يضربه . فلم يجبه الجنى الصغير بشىء ، واكتفى بان هز كتفيه .

ان عمر يحاذر هذا الاحمر الذى كان ميله الى الشر شيئا غريبا دائما .

ولم ينقض ربع ساعة الا وكان صوت زيش يرن فى الكهف فرحا مرحا . ثم انطلق يذرع الارض بقدميه راقصا ، وصيحات العمال تستحثه .

الأيام تنقضى وعمر ينضج . انه الان لا يقل عن غيره عقلا ولا حدة فى ادراك الأمور ، لقد اكسبه عمله فى الورشة خبرة كبيرة . أصبحت المعاملة السيئة لا تترك فى نفسه مثل الاثر الذى كانت تتركه اول عهده بالعمل فى المصنع . لقد تعلم كيف يحمى نفسه .

- ٢ -

عند عين الماء التى تسمى « عين ليون » لاحظ عمر حشدا كثيفا من الناس يملأ ميدان « بليق » . كان الصبى عائدا من المصنع عن طريق ممر « سيلاق » ، وشلل من الصوف فى مثل حجمه تكسوه من قمة الراس الى أخمص القدمين بفروة كبيرة تتقاطر منها ألوان حادة فاقعة : احمر واصفر واخضر وأزرق .. اقترب من الحشد ، فصاح به ثقيل يقول :

ـ اركض بأصبغتك ياصبى .

فأصم عمر أذنيه عن سماع كلامه ، فأغضب الرجل أن الصبى لم يكترث به ، فشتمه وقال :

ـ الا ترى أنك ترش الناس جميعا ؟

وظل عمر صامتا لايجيب . وساعدته الشلل المبللة فى أن يشق لنفسه طريقا بين الحشد . كان الناس يصرخون مستنكرين ، ولكنهم يفسحون له الطريق .

ان فى وجوه المستطلعين من هذا الحشد دهشة لمنظر غير مألوف وتطلع عمر فلم يلمح الا فئة بلهاء من أولئك الحفاة الذين يسكنون المدينة منذ مدة قصيرة . لقد نظمت السلطات حملة لجمع هؤلاء المتسولين . وكان الناس يقول بعضهم لبعض متهامسين ان سلسلة من التدابير قد اتخذت للوصول الى هذه النتيجة . ان رجال الشرطة تخفر الان هذه الاشباح التى تئن .

ـ كانت المدينة هادئة ، وكانت مؤدبة الى أبعد حدود التأديب فاذا بهؤلاء الافراد يعكرون صفوها .

هذا ما قاله تاجر متدثر برداء من جوخ ، مستنكرا فى وقار ورصانة .

فدمدم مازح يعقب على كلامه بقوله :

ـ أحالوها الى خان .

فمغمغ التاجر :

ـ بل أحالوها الى ما هو اسوأ من الخان .

ثم أضاف يستشهد جيرانه الذين كانوا يقفون على مقربة منه .

ـ ما تراكمهم فى مكان لا عمل لهم فيه ؟ الم يخلقوا على هذه الارض
ـ وهم اناس لا ينفعون أنفسهم ولا ينفعون غيرهم ـ الا ليزعجوا أولئك الذين يريدون أن يعيشوا حياة كريمة ؟

وفى أثناء ذلك ظهر أحد أعضاء اللجنة الخاصة التى شكلتها حكومة فيشى ، فاذا البله يتدافعون حتى ليكاد يسحق بعضهم بعضها . واراد الرجل فى أول الامر ان يعرف من أين كان يخرج هؤلاء الشحاذون . ولكن الامور لم تلبث ان ظهرت أعقد مما كان يمكن تصوره . لم يتصد أحد من الناس لايضاح هذا اللغز .

وسئل المتسولون أن يبرز كل منهم أوراقه ، فاتضح انه ليس بينهم أحد يحمل أوراقا ، لا ولا فهم أحد منهم ما معنى ذلك . وتقرر عندئذ استجوابهم ، فأجابوا جميعا بأنهم غير مستعدين لان يروا مرة أخرى الجحيم الذى غادروه .

ـ سنموت هنا .

لماذا يعلنون هذا القرار المشئوم ؟ لم يخطر ببال عضو اللجنه أن يسأل عن هذا الامر ، وقالوا يوضحون : انهم على كل حال يجهلون من أين أتوا . ولم يمكن استدراجهم الى مزيد من الكلام .

فزاد ذلك فى اضطرام حنق ممثل السلطة ، على اضطرامه من قبل . ان هذا الكهل المحلوق الذقن منذ قليل ، المتزين عنقه برباط جميل ، شديد الاحتفال بوقاره . كان واضحا أنه لم يخلق للاهتمام بمثل هذه الامور . انه لا يفهمها . ولم يعرف بم يبدأ ، حين رأى الناس ينتبهون اليه ذلك الانتباه الشديد .

وما لبث أن أعلن فى صلابة وحزم أنه سيأمر بارجاعهم .. نعم ، سوف يطهر المدينة منهم .. لا بد من استئصال هذه الحشرات .. ان المرء يحس لدى كل خطوة يخطوها فى المدينة انه يتعرض لأشد الاخطار . هل ينبغى لاحدنا أن يذبح أمام باب منزله ، أن يشهد نهب بيته ، أن يرى امرأته ...

ـ احم ...

كذلك صوت أحدهم ، فسمع جميع الناس هذه السعلة الجريئة ، وما كان أشد دهشتهم حين سمعوا ذلك الرجل الذى قال « احم » ، يضيف قوله :

ـ هؤلاء ليسوا حشرات . ان الحشرات التى انقضت على بلادنا هى التى صيرت اخوتنا الى هذه الحال .

فلما سمع عضو اللجنة المكلف بالشئون العامة هذا الكلام اهتاج

اهتياجا شديدا ، وأخذ يضطرب مرتعشا . قال يسأل متخطيا بنظره من حوله :

ــ من تفوه بهذه الكلمات ؟

فقامت فى الحشد حركات مضطربة ، وانطلقت أصوات . ثم لم يلبث الصمت أن خيم . لم يعرف أحد من ذا الذى أقحم نفسه فى الامر هذا الاقحام الخطر .

ولم يخامر أحدا شك فى انه قال هذا الكلام ثم انسل واختفى .

وفرق رجال الشرطة الحشد . غير ان النــــــاس لم يلبثوا أن تجمهروا فى بعيد جماعات ، وعادت الالسن تتحرك وقد انحلت عقدتها

وأقبل على المثرثرين شيخ طويل يسير بخطا بطيئة .

ــ ما الذى تعرفونه عما وقع لهم ؟

قال الشيخ ذلك ، وهو يصوب لحيته التى بلون الزعفران الى جهة الشحاذين الذين لم يتحركوا من مكانهم .

ــ ماذا تعرفون عن الاسباب التى انتزعتهم من الركن الذى كانوا يعيشون فيه من الارض ؟ أيها المسلمون ، لاتتكلموا فى طيش اذا كنتم ..

وهنا انبرى مسخ قصير تتدلى عليه مريلة حذاء ، فقــال يقاطع الشيخ ويمنعه من اتمام جملته :

ــ يا لهذا العصر الذى نعيش فيه !

وقال رجل حكيم :

ــ صدقونى .. ان تعاستنا ليست بنت اليوم ، وانما هى ترجع الى عهد بعيد . فيم نقلق اذن ؟

ــ ولكن لهذه الازمان اثرا فيها .

ــ هبوا ذلك .. ان هذه الازمان تكشف عن الجرح .. ولــكن الجرح ينزف من عشرات وعشرات السنين . كل ما هنالك اننا اليوم نرى الجرح رؤية أوضح .

صاح الحذاء القصير يقول مرة اخرى فى دهشة :

ــ لا استطيع ان اتصور ان شعبنا تحمل آلاما كهذه الآلام .

فقال الحكيم مؤكدا :

ــ انه يتحملها .

مضى عمر . ان هذه الامور ليست بنت اليوم . هيهات ان تكون بنت اليوم .

- ٣ -

الى أين اقتيد هؤلاء المتسولون بعد أن أخذوا من « بليق » ؟ لقد القى عمر هذا السؤال على نفسه مرارا . والاشخاص الذين شهدوا هذا الترحيل ظلوا بعد ذلك فى هم . ان رغبة عمياء فى انزال العقوبات كانت ما تنفك تزداد ضراما فى نفوس الاوربيين . كأن النوع الانسانى لبث يجهل الشر الى ذلك الحين ، ثم اذا بالحياة تمتلىء فجأة بالمناظر الكريهة والحوادث المضطربة .

كان ينبغى قبل كل شىء الرجوع الى مصدر هذا التكاثر الهائل فى المتشردين . انهم كلما دفعوا عن المدينة ازدادوا تهافتا عليها . ذلك ما كان يتكرر كل يوم . والحاذق الحاذق من يحزر ، على كل حال ، هل الذين يهبطون المدينة هم اولئك الذين اخرجوا منها فغابوا عنها غيبة قصيرة ثم لم يلبثوا أن فروا عائدين ، أم انهم وافدون جدد ، والحاذق الحاذق من يحزر أيضا هل اقامتهم ههنا هى خاتمة مطافهم ، أم انهم لا يمكثون فى المدينة الا الى حين ثم يولون وجوههم شطر أمكنة أخرى فعل الطيور المهاجرة تدفعهم غريزتهم خفية . ان المرء لايستطيع أن يميز بعضهم عن بعض . انهم جميعا سواء : وجوههم المنكسرة المتنفشة ، الغبار الاسمر الذى يكسوهم ، الاسمال الرثة التى يلبسونها ، النظرات المسدودة التى يجيلونها ، الاجسام المتهالكة التى يجرونها جرا ..

وكانوا يسخرون بعالم النظام والاغنياء الذى يجاورونه .

ما كانوا يريدون ان يفعلوه هو أن يعسكروا صفا على حافة الطريق، وقد اداروا ظهورهم للمارة .

حتى الفنادق الموسرة أصبحت لا تستاء من هذه الفوضى ، وحتى المبانى القاسية التى تشغلها أجهزة الحكومة أصبحت لا تضيق بهذه الاهانة . ولكن سكان تلمسان كانوا يرصدون ، وهم يشعرون بالمذلة، آثار الخزى هذه ، التى اختبأت طويلا ثم اختارت هذه الساعة لتكشف لهم عن وجهها القاسى .

وكانت قد هاجرت من واجهات المخازن ، البضائع الثمينة ، وصناديق الحلوى الفاخرة ، وعلب الاطعمة المحفوظة المشهية ،

والملابس الانيقة ، والحلى الجميلة ، والساعات الدقيقة ، وسائر الوان الرفاه .. هاجرت من واجهات المخازن ، ولم تحل محلها ، اذا أمكن أن يحل محلها شيء ، الا سلع رديئة ، الا بدائل كما كان يقال . فكانت هذه السلع تمكث وراء الزجاج بعض الوقت ، فتبهت ، ثم ما تلبث أن تدخل فى ذلك الاغبرار العام ، فى صحبة صورة ماريشال عجوز .

وقامت البلدية ببضع محاولات أخيرة يائسة . ولكن موجة البؤس الانسانى لم تنحسر ، بل امتدت شيئا فشيئا حتى غطت كل الارض التى فقدتها . وكلما قامت حملة جديدة ، أسرعت أسراب من المتفرجين تتجمهر . فاذا بذلك الصوت يعود يردد فى وسط الحشد صائحا :

ــ هؤلاء الناس ليسوا حشرات . انما الحشرات من صيروهم الى هذه الحال ، وهم يعيشون على اجسامنا .

كانت هذه العبارات تتردد هى نفسها كلمة كلمة على وجه التقريب، وتنتهى دائما بصيحة عالية تقول :

ــ أعطوهم طعاما ، ذلك اولى بكم .

وظلت تلك الشخصية الخفية التى تلقى هذا الاتهام مجهولة لم تعرف . ولكن سرعان ما ألف المرتادون لهجتها القروية ، القاسية الساخرة ، فاقتادهم رجال الشرطة غير مرة ، ولكنهم لم يظفروا منهم بشىء ، لولا تواطؤ الناس ، لقبض على الرجل الجرىء منذ زمان بعيد .

واصبحت السلطات منذ مدة لا تهتم بأن تنسب هذا السخر الى وجه بعينه .

ــ أعطوهم طعاما ! ولكنكم لن تقدروا على ذلك !

هذا ما كان يسمع .

والبله المتجمهرون حول « عين ليون » يرتعشون . انهم غير حانقين . ان أخوة غامضة تشد القلوب الى القلوب ■

— ٤ —

أتمت السلطات شحن عدد من سيارات النقل بأواخر فصائل هؤلاء المتسولين . فالمدينة الآن حرة . انها تتنفس .

استردت الشوارع وجهها الجميل ، كما كانت فى الماضى ، وهو ماض يرجع عهده الى أمس القريب ، ولكنه كان قد امحى فى بلبلة هذه الازمان المضطربة . الناس يتجولون الآن فى المدينة دون أن يصطدموا بالنفايات . غير ان حجابا من حداد حزين قد ألقته على المدينة تلك الجماعات الساغبة الوضرة التى غابت الآن عن الانظار ولكن ذكراها لا تزال ماثلة فى الاذهان .

الى أين ذهبت سيارات النقل التى شحنوها بهم ؟ ماذا صنعوا بهؤلاء الرجال والنساء والاطفال ؟ آه ... كم تبدو الشوارع أنيقة .

وعلى أن الجو لم يدفأ الا قليلا فان البرد أخذ يخفى أظافره على هون من الاشعة المتلألئة . ثم غمق لون السماء وقسا ، وما جاءت الظهيرة الا والشمس قد كثفت كما يكثف المربب ، والتهب الهواء .

وظهروا مرة ثانية . ظهروا فى هذه المرة ظهورا لم يتوقعه أحد ، وعددهم الآن أكبر من عددهم فى اليوم الاول . تساءل الناس عن هذه المخلوقات ما هى ؟ قيل لهم انهم يجيئون من الداخل ، من أمكنة أبعد من البلاد المحيطة بالمدينة ، وان عددا كبيرا منهم قد قطع عشرات الفراسخ . انهم يتهافتون على المدينة من أراضى الجنوب . البلاد كلها تهتز اذن وتضطرب . أنى لسكان المدينة أن يعرفوا ذلك وهم يعيشون بمدينتهم فى عزلة كأنها عزلة الرهبان فى الدير ؟

ثم ان الناس لا يزالون يكتفون بالمضى الى شئونهم الخاصة ، فان الهموم لا تعوزهم ، ولكل يوم من الايام نصيبه من هذه الهموم . ان لهم أعباء تشغلهم عما عداها . ومع ذلك أغرقت هذه الاحداث أكثرهم فى وجوم عميق . فما ان يذهب أصحاب الحرف الى دكاكينهم عند مطلع الصبح ، وما ان يفتح الباعة أبواب حوانيتهم ، وما أن تنتشر جمهرة العمال فى المدينة ، حتى تكون الشوارع المزدحمة قد أوشكت أن تسدها جموع هؤلاء المتسولين سدا . وكانوا يزدادون فى كل ليلة عددا .

الحق أن منظرهم خشن مفرط فى الخشونة . كان كثير من الناس اذا لقوهم أمامهم لاول مرة ، لم يروا فيهم ما يجذبهم اليهم ، ونفروا من خشونتهم . وكان بعض الناس يشيحون بوجوههم عنهم مروعين وهم يقولون : « لست أعرف نفسى فى هؤلاء » .

الملامح الغائرة ، والعظام الناتئة ، واللحى الشعثاء ، ذلك كله ليس يلفت النظر كثيرا فى هؤلاء الصعاليك : ان هذه الرءوس التى كأنها رءوس خراف ، شائعة فى الريف . وانهم صامتون لا يتكلمون ، ساكتون لا يتحركون الا قليلا ، فذلك معروف فى ضعاف العقول . غير ان هناك شيئا واحدا يخطف البصر فيهم : هذه الاعين الثابتة المسحورة .

ورتبوا امورهم مرة اخرى من اجل أن يعسكروا فى الطريق العام . كان الاوربيون ، اذا صادفوهم ، يظهرون الامتعاض والاشمئزاز . فكان عمر يشعر من ذلك باستياء : انه يحس ، شاء أم ابى ، ان هؤلاء الحفاة منه وانه منهم .

ود عمر لو يعرف كيف كانوا يستطيعون ان ينتشروا فى كل مكان . انهم كلما ابعدوا وكلما طردوا عادوا وقد ازدادوا عددا حتى أن السلطات نفسها قد دب اليها اليأس .

أما عن التحدث اليهم ، فان المرء ليراهن انهم يتكلمون لغة أخرى . ثم انهم لا يظهرون اية حاجة الى عقد اية صلة بالمدينة . كان يبدو عليهم أن مشاغل أخرى تملأ رءوسهم ، وتضعهم فى خارج هذا العالم . على أن عددا كبيرا من السكان اصبحوا يعطفون عليهم بعد تفكير ، وأصبح الناس لا يستاءون منهم رغم أن مظهرهم المتجهم لا يشجع على التودد اليهم والعطف عليهم . وكان بعض الناس اذا رأوهم جالسين جنبا الى جنب ، آباء وأمهات وأبناء ، وهم يقضمون كسرة من الخبز قاسية كأنها الحصى ، يذرفون عليهم دموعا من شفقة .

ولئن كانت جموعهم ما تنفك فى ازدياد ، فانهم لا يصبحون من ذلك أشد جرأة ولا أكثر ثقة بأنفسهم . وكانوا يمضون باحثين عن أمكنة جديدة فى غير انقطاع ، لا يبدو عليهم انهم سيعودون أدراجهم الى حيث كانوا .. ولكن .. ولكن أكانوا يتخذون المدينة ملجأ لولا أن مكثهم فيها الى حين ؟

وما هى الا فترة قصيرة حتى أصبحت لا ترى أسرة من الاسر ، مهما تكن فقيرة ، الا وتقدم اليهم شيئا من طعام . صحيح ان ما يقدم اليهم لا يزيد على كسرة رقيقة من خبز ، ولكن هذه الكسرة الرقيقة

من الخبز كانت تقدم اليهم على كل حال . أضف الى ذلك ان شعوراً بالتضامن قد اخذ يدفع نحوهم كل فرد من الافراد .

وكان الاوربيون بطبيعتهم لا يمارسون الصدقة ، لذلك كان هؤلاء المتسولون لا يذهبون الى بيوتهم مستعطين . ان الاحياء التى يسكنها أناس من اصحاب الحرف والعمال والباعة المتجولين وغيرهم من فقراء الناس ، هى التى كانت من بين سائر الاحياء تهب الى التخفيف عنهم . كانت أبواب البيوت التى لا توصد ابدا تستقبل منهم مواكب لاتنقطع.

وفى جوف الليل ، بينما النـــاس نائمون ، كانت ترتفع فى بعض الاحيان على حين فجأة شكاة اليمة . وتظل الشكاة تترنح الى غير نهاية خلال الشوارع الصغيرة المظلمة ، تتلمس طريقهـــا من وراء الجدران ، الى قلب غاف من قلوب البشر .

حتى دار سبيطار أصبحت منذ ذلك الحين تجد الســـبيل الى مساعدة هؤلاء الاقرباء الجدد الذين أتت بهم النكبة .

كانت عينى تقول :

ــ هؤلاء اخوتنا دما ، وضيوف أرسلهم الله الينـــا ، فأهلا بهم وسهلا . ولسوف نستقبلهم ولو لم يكن فى بيتنا ما نقدمه اليهم غير المـــاء ، وسيفهمون ان بنا من الفقر والعوز مثل الذى بهم تقريبا . لا يزال فى هذا العالم رحمة . لن يقال اننا طردنا اخوتنا لاننا نملك مأوى ولا يملكون ..

والحق أن حياة دار سبيطار لم تكن بالحياة الرخية ، حتى ان أهلها كانوا يطلقون عليها اسم : اللعينة ، ومع ذلك كانوا يرونها ، على علاتها ، اهلا لان يتعلقوا بها ، وان يساعدوا غيرهم على أن يحيوا

وكثر عدد الموتى فى اثناء ذلك . ما أكثر الفقراء المساكين الذين كان يطلع عليهم الصباح وقد لفظوا أنفاسهم الاخيرة دونما جلبة !

وما أكثر الاحياء الذين كانت وجوههم الملطخة بالوحل ، وشفاههم المضمومة ، تسود أسودادا غريبا ! . وهذا بعضهم يزحف زحفـــا بطيئا الى مخابىء مجهولة ، ثم يختفى عن الانظار ، فما يراه بعد ذلك أحد .

كان هؤلاء الناس يستأذنون العالم بالانصراف ، فى تكتم لا نظير له، حتى لكأنهم يعتذرون عن ان عليهم أن يموتوا . كانوا يموتون .. فيفحصهم طبيب البلدية الشرعى ، فيشهد بأنهم ماتوا .

— ٥ —

لو رأيته يدلف الى الكهف لقلت انه سقط اليه سقوطا كحجر ، ولم يدخل فيه دخولا . هكذا هبط الى الكهف ومضى يجثم قرب باصقالي . ان انفاسه تهدر . وخيم صمت كبير . انه واحد من أولئك المتشردين البؤساء الذين يملأون رحاب المدينة . ألقى على الحائكين نظرات كأنها اسنان المخارز ، وكانت تحيط بوجهه هالات من ظلال . تذكر عمر المتسول الذى مد اليه خبزه فى ذات صباح وهو آت الى المصنع . ان له هذا الوجه القاسى نفسه ، وهذه اللحية الشعثاء نفسها فى الخدين الغائرين .

قال الرجل بعد لحظة :

— اسمى محمد عود الشيخ . أنا مزارع من بلدة بنى بوبلان (قال ذلك وهو يشير بيده الى جهة الغرب) . لم يبـــق لى شىء ، فقدت كل شىء ، كل شىء ، أرضى ، وامرأتى . وأولادى ... أحالنى رجال القانون بهيمة ضالة .

كان صوته هادئا ، فاترا . وكان يتأمل الجدار المتقشر الكلس أمامه . كانت النافذة العالية تبعثر نورا مضــطربا على جســمه الغاطس فى ثنايا جلبابه الخشنة . وصمت . وصعد الصمت من تحت الارض .

راح عمر يستعرض ذكرياته . بنى بوبلان . يا للايام الجميلة التى تجرى هنالك هادئة على تأرجحات الضياء ..

ولكن اللهجة الحجرية التى يتكلم بها المتشرد لم تلبث أن اخرجته من أحـــلامه :

— الله يحميـــكم ...

قال المتشرد ذلك ولم يضف اليه كلمة واحدة . والحائكون قد جمدت عليه أبصارهم يرقبونه صامتين .

ثم اذا بأصوات ضخمة يعلو صياحها عند مدخل المصـــنع ، واذا برجال الشرطة يهبطون درجات السلم مسرعين ، وقد أخذت أقدامهم المثقلة بنعـــالهم ذات المســـامير تتـــدحرج على الدرجات تدحرجا . ابتلعتهم ظلمة الكهف ، ولبثوا لحظات لا يعرفون الى أين يتجهون ، وعيل صبرهم أخيرا فصاحوا يسألون الحائكين :

ــ هيه ... انتم . اننا نبحث عن شخص هارب ، افليس هو هنـــــــــا ؟

ولكنهم كانوا قد لاحظوا الهارب متجمعا على نفسه فى ركنه . فهجموا عليه ، وأنهضوه من ذراعيه ، وجروه . استسلم الرجل لهم . غير انه حين صار من السلم فى منتصفه وقد احدق به رجال الشرطة ، التفت نحو العمال ، فألقى عليهم نظرة أخيرة . كانت نظرته غارقة فى حزن قاتل ، وقد غارت عيناه .

لم ينطق أحد من الحائكين بحرف . واحس عمر فجأة كأن حبلا ينعقد على عنقه ويخنقه . تساءل : لماذا ؟

***

قال شول من بين لثتيه :

ــ كيف كانوا يستطيعون ان يعيشوا من الارض ثم اصبحوا اليوم لا يستطيعون ذلك ؟ هل رقعة الارض ضاقت ؟

فأجاب الامين مدمدما وهو لا يريد ان يتجه بالكلام الى شول بالذات :

ــ من رأى حالتهم ، من رأى حالتهم حق الرؤية ، لا يرضى لنفسه أن يتكلم فى حقهم كيفما اتفق ...

ــ اعلم ، اذا شئت ان تعلم ، ان البشر هم الذين تكاثر عددهم . هل كان فى الماضي مثل هذا العدد الكبير من الفلاحين ؟ ابدا ...

قال عكاشـــــــة :

ــ لماذا لا تذكر الاراضى التى سرقت منهم ؟

ــ لو عرفوا كيف يدافعون عن أراضيهم ، لما أستطاع أحد أن يأخذ منهم شيئا . ان الله قد أربى عددنا وأضل عقولنا . انظر كيف يزداد انتشارهم فى شوارعنا ؟ ما عساكم تقولون فى هذا ؟ حمـــــــــاكم الله .

ــ سيأتى الاوان ..

ــ اى أوان ؟ الم تسمع بالقول المأثور : لو كان يباع لما رموه ؟ كذلك شأن هؤلاء .. فليأت الاوان .. وسنرى .

فتنحنح حمدوش ، مادا عنقه ، مائلا بصدره الى أمام . وقال .

ــ المسألة ليست هذه . لماذا لا تتكلمون عنا ؟ اننا لا نريد ان نسبب لانفسنا المتاعب ، وخاصة من أجل فلاح .. ما شأننا نحن به ؟ ان الله هو الذى يحق الحق .

قال ذلك وتغضنت راويتا عينيه ، وانشمرت شفتاه .

— من ذا الذى يجرؤ أن يقول اننا جبناء ؟ من ذا الذى كان يمكن ان يفعل غير ما فعلناه ؟ من الذى يستطيع ان يساعد رجلا تطارده الشرطة أيها الاخوان ؟ لا أحد . والا كان يعرض نفسه لخطر كبير ... والا كان مجنونا . كل ما هنالك ان الرجل قد اخطأ حين لجأ الى هذا المكان . لقد كان يمكن أن نفعل شيئا ما ، ولكن ..

كانت كل كلمة من كلماته اشبه بحجر يرشق بها رفاقه . وفجأة اخذ يضحك ضحكة طويلة مضت تصطدم بعتبة الكهف وتترجع بين جدرانه .

ماذا تقول ؟ لم تقل شيئا ؟ تخشى السوط ؟ فهمت . اننا راضون عن مصيرنا ، وهذا المصير أشبه بصخرة مربوطة بأعناقنا .

قال حمزة :

— سوف يهدم هؤلاء الرجال بلادنا ويعيدون بناءها من جديد .

نقهقه الاحمر قهقهة قوية .

— ونحن ، ما الذى سنعمله ؟

تابع حمزة يقول :

— البلاد في مخاض هادىء . والبلاد هى هم . لقد اخذوا يسيرون ، فالبلاد هى التى بسيرهم تسير .

قال عكاشة متمتما :

— هم جزء منا .

واظلم وجهه الذى تغطيه لحيته الملتهمة السوداء .

وعاد حمدوش يسأل :

— ونحن ما الذى سنعمله ؟ نحن أناس اقرب الى القافلة ، فلعل من الاحسان الينا أن يصار بنا الى الزوال ..

قال شول منكرا :

— هؤلاء الناس لا يشبهون أحدا .

وتثاءب تثاؤبا طويلا ، ثم عاد وجهه فصار من حجر ، وجمدت عيناه فكأنهما من زجاج .

- ٦ -

غضب عكاشة :

ـ اننا لا نعرف شيئا عما عانوا ، ولعلنا لن نعرف عن ذلك شيئا فى يوم من الايام . انهم يتوافدون من أراض أصابتها اللعنة .

عاد شول يقول فى تثاقل :

ـ انظروا كيف يختالون فى المدينة ، وينامون أينما أتفق ، ويزحمون الشوارع .

ـ كأن أوربيا هو الذى يقول هذا الكلام !

ـ لماذا ؟ اى ضير فى أنتقول هذا الكلام ؟ اعترف أنهم قد ألفوا ان يعيشوا كما تعيش البهائم . والاوربيون حين طهروا منهم المدينة عدة مرات لم يفعلوا الا ما كان يجب ان يفعل . غير ان أصحابنا هؤلاء جنس من البشر لا يقدر عليهم شيء ولا يقدر عليهم أحد . . لا يقدر عليهم الا الذى خلقهم . .

ثم اضاف شول بعد لحظة من تفكير يقول :

ـ انى لاتساءل ما الذى كان يمكن أن نصير اليه لولا أن عصا السلطة الفرنسية تهتز فوق رءوسنا . انى لالقى على نفسى هـــذا السؤال حقا . . . لولا هذه العصا ، لاكل بعضنا بعضا ، مافى ذلك ريب !

قال ذلك ، وشعل ينظف حلقه ، وبصق ، واضاف :

ـ اننا شر من الذئاب . .

فما كان من حمدوش الا ان رشقه بألفاظ فاحشة ، وقال :

ـ ليس مؤكدا أن لك تحت سروالك ما يبرهن على انك رجل .

فرد شول بحركة بذيئة ، فضج عدد من العمال يضحكون ضحكا صاخبا بينما أخذ آخرون يدمدمون متذمرين .

فكر عمر فى جميع أولئك المتسولين الذين يطوفون بالمدينة ، بؤساء فى عزلتهم هذا البؤس كله . فهدرت فى نفسه حركة من تمرد وحنق على رفاقه فى المصنع . انه يود لو صفع نقضته هذه الوجوه التى تكشر ساخرة فى عتمة الكهف . وأحس بظمأ شديد الى الهواء الطلق . واستمر الحائكون ينقض بعضهم على بعض وهم يوشكون ان يتناهشوا

تناهش الكلاب المسعورة .

قال الامين متمتما فى لحيته :

ـ يجب أن يعيش بعضنا لبعض ، فيكلأنا الله بعنايته .

وازداد وجه عكاشة اظلاما ، ثم لم يحفل بالحديث الذى يدور . كان صوته فى الكلمات الاخيرة التى نطق بها ، قد تحجب فجأة حتى لكأن الكلام لا يسعفه . وقام بحركة يابسة عصيبة . وكان عمر يراقب عينيه وهما تتقدان قاسيتين .

قال مولاى بو أنور يئن بصوته النحيل الرتيب :

ـ علام المناقشة فى هذه الامور ؟

ثم أخذ يسعل ، وصعدت الدموع الى عينيه ، وأخذت تتدحرج على وجهه الذى يشبه ان يكون من شحم زنخ ، دون أن يبدو عليه أنه يشعر بذلك .

قال حمدوش وهو يهز راسه :

ـ اسمع . اننا نتناقش فى هذه الامور لاننا .. فى أى امر آخر تريد أن نتحدث ؟

وصمت . ثم نظر الى مولاى بو أنور نظرة ليست معهودة فيه ، لقد كان فى هذه المرة جادا واجما .

ازداد سعال مولاى عنادا . كان الحائك قد بلغ من انحنائه على نوله ان رأسه يلامس الاسطوانة .

قال له الاحمر فى رفق :

ـ حقا ! الا انك لعاقل حكيم .. علام تتحدث فى هذه الامور ؟

ـ حين كنت فى مثل سنك ...

قال عكاشة هذا ولم يزد . ثم ربت على كتف عمر وقال :

ـ آه ... دعنا من هذا .

هذه أول مرة يجىء فيها عمر الى هذا المقهى . كان سروره بوجوده فى هذا المكان كسروره بصحبة عكاشة .

ان عمر صامت ينظر فيما حوله ، وهو يشم رائحة الماء الرطبة فى قادوس عفن . كان ينتظر ما سيقوله عكاشه . ولكن عكاشه يسأله :

ـ قهوة ام شاى ؟

فتردد الصبى ثم أجاب :

ـ شاى ؟

فصاح عكاشة :

ـ واحد قهوة ، وواحد شاى ، يا معلم .

كان صاحب المقهى يعمل وراء بسطة صغيرة ، فى ظل تتلألأ فيـه أوانى الخزف البيضاء ذات الازهار الزرقاء ، المصفوفة فى « الوجاق فلم يقل شيئا ، ولكنه سرعان ما أخذ يتناول من بين أدواته ما هو فى حاجة اليه .

كان عكاشة جالسا قبالة عمر ، مديرا ظهره للشارع . ولم يكن فى المقهى كثير من الناس .

جاء المعلم بالقهوة والشاى .

ان الجدران المتدخنة الحالكة السواد تلقى فى القاعة ظلا مريحا . وكان الزبائن الاخر لا يتبادلون الا كلمات قليلة من حين الى حين . وبينما كان عمر يحدق الى الازدحام الساطع فى الشارع ، تناول قدح الشاى المحرق الذى تطفو على سطحه خصلة من نبات النعناع ، فحمله الى شفتيه ورشف من السائل الذهبى اللون رشفة طويلة .

تنهد عكاشة ، ثم ابتسم وقال :

ـ انا قلق ...

فأعاد عمر قدحه الى المنضدة .

وتابع عكاشة يقول :

ــ اننى لم اكن هادئا من قبل ، فكيف وهؤلاء الناس يملأون المدينة الآن .

ــ أوه ... لا خوف منهم .

طفل .

واخذ عكاشة يضحك ، لكنه لم يلبث ان عاد الى عبوسه .

ــ اننى لم أكن هادئا من قبل ، غير اننى منذ رايت هؤلاء الناس أصبحت احس بحمل ثقيل يجثم على كتفى ...

لم يتكلم عمر ، وقد ازعجه انه أساء فهم معنى الكلمات التى قالها صديقه

وصمت عكاشه ايضا . وسمعا ، خلال هذه البرهة القصيرة من السكوت ، الكلمات المتباعدة السريعة التى كان يتبادلها جيرانهما من حين الى حين . قال عكاشة :

ــ لقد ازداد قلقى .

وطاف ببصره على الجدران القاتمة ، وتأمل « الوجاق » الذى يشبه أن يكون ضريحا صغيرا مزينا يشع بياضه فى عتمة المقهى الفقير ، وحدق الى المقلاة العالية الموضوعة عليه ، ونظر الى صاحب المقهى الذى كان قدامه ، ثم تطلع الى عمر فقال له أنه يحس ان شيئا جديدا قد نبت فى نفسه . وسأله :

ــ انت مؤمن بالله ؟

فتلعثم الصبى وقال :

ــ أنا ...

وتفرس فى وجه صاحبه ، ثم اضاف :

ــ لا ادرى ...

وكان رجل قصير ذو لحية قوية يجلس على مقربة منهما ، فضحك ضحكة متخفية لم يلبث أن نقلها الى سائر الزبائن ، فالتفت عمر وعكاشة الى وراء بحركة واحدة لينظرا اليه . سأل عكاشة صاحبه :

ــ اصحيح حقا انك لا تعرف ؟

قال ذلك وعيناه تتأملان الفراغ . فلم يجب عمر بشىء .

فخفض عكاشة رأسه ، ولبث صامتا لا يتكلم .

ان الفتى ينظر تلقا ، من فوق كتف رفيقه ، الى الشـــارع الملىء بالضياء والحركة والضجة .

قال عكاشة :

ــ يخيل الى أننى أصبحت غير مرتاح الضمير .

قال ذلك بصوت مختنق ، ثم رفع عينيه ينظر الى عمر ، واضاف بصوت عال :

ـ أوه ... لست آخذ على نفسى شيئا بعينه .

ثم دمدم :

ـ وانما اتكلم بوجه عام .

وتابع يقول :

ـ ليس يكفى المرء بعد الآن ان يكون مؤمنا حتى يرتاح ضميره . طبعا .. أنا أتمنى لو كان ايمانى مصحوبا براحة فى ضميرى . ولكننى مؤمن وغير مرتاح الضمير .

وفجاة صاح بعنف مكظوم خفق له قلب عمر :

ـ لكاننى لم يبق لى فى هذه الحياة شىء اعمله . يمينا ان هذا هو ما أشعر به .

قال ذلك وهو يغرز فى عمر نظراته السود المتقدة .

ـ نعم .

احس عمر بانه تعيس . واخذ عكاشة يضحك ضحكا خافتا .

ولم يتكلم أحد منهما بعد ذلك ، وغرقا فى ذلك الصمت الذى يغرق فيه رواد هذا المكان ، اذ يظلون ساعات طويلة جنبا الى جنب دون أن يتبادلوا كلمة واحدة .

وخرجا بعد قليل . الناس يسيرون فى الضوء الازغب ، وكأن شمس الربيع قد جلت المدينة فبدت نظيفة ملتمعة . ان عمر لايزال يفكر فى أقوال عكاشة . ان ما لهذا الحائك من حركات هادئة ومزاج معتدل، على تحفظ ، يبث الطمأنينة فى النفس . ان المرء لا يستطيع الا أن يتأثر بهدوء عكاشة ، خاصة اذا كان يعرف ذلك الطبع الغريب الذى يتصف به الاحمر مثلا . كان عمر يشعر بأن لعكاشة مزاجا يفيض بالعاطفة حقا . ومع ذلك لم يستطع عمر ان يدفع عن نفسه ذلك الاضطراب الذى أيقظته فيه أحاديث عكاشة .

وفيما كانا يسيران انبجس من سيل المارة شيخ ذو وجه عريض متحبب ، يرتدى اسمالا رثة ، ويتلمس الطريق أمامه بعصا طويلة . انه يقضم اثناء سيره كسرة من الخبز ، ويصيح بصوته القوى من حين الى حين :

ـ حسنة يا اخوان ، حسنة للاعمى المسكين .

ان عينيه الميتتين تحت جفنين احمرين منتفخين تبدوان خانقتين .

انك تقرأ آيات شقاء بهيمي على وجهه المتغضن الذى تجتاحه لحيــة كثيفة قذرة ملطخة باللعاب .

كاد عكاشة يصطدم به دون ان يراه لولا انه تلقى العصا بين ساقيه ، فأخذه عندئذ بيده ، ورده الى طريقه .

وعند « باب بومدين » كان هنالك حشد كبير من الناس يتكسبون . فهذه نساء وبنات صغيرات يمتدحن أرغفة خبز الشعير التى يحملنها للبيع . وهؤلاء رجال من تجار الامتعة العتيقة قد فرشوا على الارض أنواعا لا حصر لها من الاطمار القديمة . وهؤلاء قصاصون قد تحلق حولهم العاطلون ، فهم يحكون لهم بصوتهم الصادر من أسفل الحلق كصوت أهل الجنوب ، سير ابطال الزمان القديم . وهؤلاء باعة متخفون متعجلون خائفون يتسللون بين حشود الناس ، ويغمزون المارة عارضين عليهم سلعا من السلع التى لا يجوز الاتجار بها : سكر ، صابون ، زيت ، دقيق ...

ان سوقا سوداء قد قامت فى هذا المكان فى أيام التقنين هذه . فوراء هذا العالم الذى يغلى ويفور ، ووراء هذا العــالم الذى لا يخفى بؤسه ولا يحفل به ، انما كان رجال الشرطة ، الذين ينتمون الى عالم آخر ، الى العالم الذى يهدد ويتوعد ، يسودون ويحكمون ، كآلهة لا سبيل اليها وليست اشخاصا بأعينها .

هكذا تجول عمر وعكاشة فى الشوارع خلال فترة من الوقت ثم افترقا .

- ٨ -

كانوا يأكلون ، فبعض يأكل خبزا وقليلا من مصالة اللبن ، وبعض يأكل خبزا وقليلا من الزيتون ، وبعض يأكل مع الخبز بطاطس طبخت بكثير من الماء وفطرة من زيت . انهم يمضغون طعامهم صامتين .

وفوق رءوسهم تتدلى شباك طويلة من شباك العنكبوت وهي تتأرجح متراخية كسلى . وعلى الارض غطاء أبيض من غبار يرمونه ببصقاتهم من حين الى حين . والغبار نفسه يتشبث بجميع الاشياء سبائغ دقيقة ناعمة ، فهو يغطي أخشاب الانوال والجدران الخشنة وأسلاك الكهرباء والحبل المنشور من أول المصنع الى آخره .

وانتهى حمدوش من التهام طعامه أول المنتهين ، على عادته في السرعة المهتاجة . حتى اذا مسح فمه بظهر أحدى يديه ، اتجه بالكلام الى عكاشة يسأله بلهجة ملتبسة :

ــ قل لي ، هل صحيح أنك انخرطت يوما في السياسة ، ثم عضضت أصابعك ندما على ما فعلت ؟

ــ السياسة ؟ جميع الناس يعملون في السياسة .

ألقى عكاشة نظرة هادئة على حمدوش دون أن ينقطع عن تحريك فكيه ، فاستاء الاحمر وعاد يقول :

ــ لست أفهم ما تريد أن تقوله . أنا مثلا أهتم بعملي ولا اكترث بشيء عداه .

ــ وأنت تعمل في السياسة أيضا .

وفي أثناء ذلك انطلق شول يضحك ساخرا من هذه التصريحات التي أدلى بها حمدوش ، ذلك ان حمدوش هو بين سائر العمال أقلهم مواظبة على العمل واستمرارا فيه . كان لا يكاد يعمل في مصنع حتى يهجره الى غيره ، وبذلك طاف المدينة كلها من أقصاها الى أقصاها .

ــ غريب . وهل حين أذهب الى زازا أعمل في السياسة ؟

قال حمدوش ذلك وأخذ يقهقه قهقهة عالية من شدة فرحه بمزحته الموفقة . وزازا هذه مومس من الاحياء الدنيا ، هي أثيرة قلبه .

كان الآخرون صامتين لا يتكلمون وفي أعلى ، من خلال زجاج النافذة العالية ، كانت ترى أطياف مارة يسيرون غارقين في ضوء أغبر .

وكانت جلبة الشارع تصل الى الكهف ، غير أنها تصل اليه ضعيفة لا تفهم .

ــ المفتش نفناف ...

قال مصطفى رزاق ذلك ، وانقطع عن الكلام وتمطى طويلا ، ثم تابع يقول :

ــ المفتش نفناف ، قال لي وهو يخرجني ذات يوم من باب السجن : « ألا تستحي أن تقضي حياتك كلها في السكر ؟ يجب أن تعود الى رشدك » فأجبته بقولي : « لقد ظللت طوال حياتي أعمل فرايتني بعد ذلك العمل واقفا حيث أنا لا اتقدم الى امام خطوة واحدة . لذلك قررت ألا أعمل الا من اجل ان أكسب ما أدفعه ثمن الخمر » فقال لي وهو يدفعني الى خارج السجن : « لسوف تفطس من ذلك » ، فوددت لو أجيبه قائلا : « انا اسكر فأسلو ، اما انت ، يا غبي ، فما سبيلك الى السلوان ؟ أهو تعذيبك لاخوتك البشر ؟ »

واجال مصطفى رزاق نظراته الحالمة في المصنع . ان وجهه طويل نحيل . وأضاف يقول :

ــ ما الفائدة من الحياة ؟ لا فائدة منها .. لذلك أشرب ، وأنا أثناء السكر ، انسى حماقة البشر .

قال حمزة :

ــ ليس هذا بأكيد .

فلم يجبه الآخر ، ولكنه رفع قبضة يده وهوى بها على أحد الانوال .

ــ جائز .

قال شول مازحا :

ــ عدا هذا ، أنت مسرف في حب الشراب .

فتنهد رزاق ، ومال برأسه ذات اليمين وذات الشمال كمن في صدره كلام كثير يطول شرحه .

كان حمدوش جالسا على احدى درجات السلم ، منزويا ، عاقدا يديه على ركبتيه ، يصغي الى الاصوات المبهمة التي تقوم في الشارع الصغير .ان وجهه الجميل المتناسب القسمات يعبر الآن عن استغراق في التفكير . شفتاه ممطوطتان ، وقميصه الازرق ينحسر عن صدر تنتشر عليه شعرات شقر . قال مدمدما :

ــ هذا كله ليس له كبير قيمة .

ــ زازا وحدها هي التي لها قيمة في رأيك .

قال شول ذلك وتقلطح فمه الذي لا أسنان له ، فتثاءب ، ثم أردف

ينق :
ـ انتما متلازمان ...
حين سمع الاحمر اسم صاحبته حملقت عيناه . واقترب حمزة من عكاشة فسأله بلهجة الأسرار :
ـ هل سجنت ، انت ؟
فلم يجبه عكاشة .
صاح حمدوش :
ـ السياسة ، ما السياسة ؟
فارتفع صوت حمزة يهتف :
ـ ياجزائر ، يا جزائر ، أين رجالك ؟ من ذا الذى سيوقظهم من سباتهم ؟ لقد اشتدت كروب الشعب ، لقد اتسعت كروب الشعب .
فصرخ حمدوش صرخة كبيرة انتفض لها المصنع كله ، ثم تظاهر بأنه يبكى بكاء متقطعا :
هى هى هى ...
تابع حمزة :
ـ السياسة شيء معقد يفهمه كل واحد على طريقته الخاصة به . فبعض يقول : يجب اعطاء الاراضى للفلاحين . وبعض يقترح : « اعطونا كل شيء ونحن نوزع على ابناء الشعب بالعدل » .
وهكذا ترى ان السياسة تعنى برخاء بنى البشر .
قال الاحمر :
ـ طيب ... ولكن نحن ... نحن الحائكين ؟
ـ نحن ؟ نحن زبالة .
فألقى حمدوش نظرة احتقار على حمزة ، وأشاح بوجهه عنه . قال مدمدما :
ـ من حكم عليه بالاشغال الشاقة ، وخاصة من حكم عليه بالاشغال الشاقة منذ قديم ، ليس الا حمارا ببردعة .
وكان قوطى الامين معتزلا فى ركنه من المصنع يتمتم على عادته . انه يحرك شفتيه كثيرا ، دون أن يرفع صوته ، كأنما هو يستعرض أفكاره ثم يستعرضها الى غير نهاية .
وحين فرغ عمر من تناول طعامه ، مضى يلتحق بالصبيين الآخرين الذين ابتعدا الى آخر المصنع ، وجعلا يرشقان شفار القصب فى الهواء ثم يستقبلانها على ظهر اليد وهما يتصايحان .

- ٩ -

قال صاحب المطعم :
آخذ النهار يطول .. وفكر لحظة ثم اضاف :
- لقد لقى هتلر من يقف فى وجهه فى الشرق .
وصمت . ولكنه ، كمن لم يفصح عن كل ما فى ذهنه ، استأنف كلامه :
- سوف يعلمه الروس كيف يعض التراب ، هذا لا شك فيه .
فهز عكاشة رأسه هزا خفيفا لا يكاد يرى .
كان المعلم واقفا وراء بسطته المحملة بأطعمة بائتة . وكان عكاشة مستندا بكوعيه الى احدى الموائد الطويلة فى المطعم الفقير ، يتأمل كأس الشاى الموضوع امامه ، الذى تنقع فيه أوراق الابسنت ، وقد وضع يده على خده ، وراح ينشق من سيجارته أنفاسا مطردة .

ان عمر يحس بهذا الزمان الذى يجرى احساسا يشبه ان يكون جسيما . وكان فى المطعم رجل آخر فلاح يدل مظهره على انه حمال وشابان فى نحو الثامنة عشرة او العشرين من عمريهما ، عاريا الرأسين يرتديان ملابس الزى الاوروبى . ان الجلبة التى يحدثها زبائن المقهى تختنق فى هذا الجو الذى ينضح دهنا ، والذى أصبحت رائحة الطعام الكريهة جزءا من هوائه وموائده الخشنة الخربة وأرضه السوداء ومقاعده المهترئة . والقاعة يعوزها النور ؛ فضوء النهار يتخلله زجاج بابها فما يصل اليها الا كابيا . ومن ضجة الشارع لايبلغها الا اهتزاز خافت

بعد ان قال المعلم تلك الكلمات رفع مغلاة الشاى التى يضعها دائما قرب الموقد وملأ منها قدحا الى آخره ، ثم جاء فوضع الشاى أمام الصبى دون أن يقول شيئا ، ورفض الصبى باقة الابسنت التى مدها اليه ، لان صدره ينقبض لرائحة هذا النبات ، فما الح المعلم ..

كان عمر يدرك ان عكاشة قد سر بمجيئه . ان هذا الحائك يجىء الى هذا المكان فى جميع أيام الاحد . انه والمعلم صديقان قديمان ، وهما كلاهما يحبان التأمل ويحبان الشاى بالابسنت .
وفى هذه اللحظة ، انفتح الباب ، فما كان أشد دهشة عمر حين راى حمزة يدخل ويقبل عليهما مبتسما .

ـ هيه .. جئت الحق بالرفاق .
قال حمزة ذلك ودار حول المائدة فجلس قرب عكاشة .
ان كل حديث مع عكاشة أصبح الآن مستحيلا .
التفت عمر نحو الصالة ، ورصد الشابين اللذين يرتديان ملابس على الزى الاوروبى . انهما جالسان فى وسط المطعم .
وكان حمزة يتكلم ، فاذا هو يمسك عن الكلام فى منتصف جملته، ويتمتم قائلا :
ـ لنمسك عن الهذر .
وسأله عكاشة :
لماذا ؟
ـ لا شيء .
ولم يقل السجين السابق بعد ذلك شيئا .
فقال عكاشة دهشا :
ـ أنحن خائفون آذن ؟ يمينا انه ليكفى أن تتحرك قليلا ، حتى يوسخوا سراويلهم
فهز حمزة رأسه .
ـ يلقون اليكم بعظمة ، فاذا انتم تعودون الى الطاعة والرضوخ ، كالكلاب . لقد علموكم كيف تخضعون
كان يتحدث بثقة هادئة تضفي على كلامه ثقلا كثقل البداهة .
وابتسم عكاشة ابتسامة مقهورة ، وخفض رأسه • قال مدمدما وقد أخذت يداه ترتعشان :
ـ لقد علمونا ان نخضع •• ولكن يجب ألا يركنوا الى هذا كثيرا .
فرفع حمزة كتفيه . فرشقه عكاشة بنظرته السوداء ، ثم القى على القاعة نظرات سريعة . وظهرت تلك الابتسامة المقهورة مرةأخرى فى شفتيه اللتين انعقفتا قليلا فى أدغال لحيته . ان حركاته تنم عن عذاب وغم فى نفسه .
دمدم السجين القديم :
ـ اذا كان الناس كما تراهم فليس الذنب فى ذلك ذنبهم .
وكان عمر لا يزال يرصد الشابين وقد ثار حب الاطلاع فى نفسه •
انهما يجلسان متبخترين ، على كرسيين عتيقين غاص قشهما ، وقد باعدا بين ساقيهما مباعدة كبيرة ، فليس يتفق وضعهما كثيرا مع مافى هذا المكان من شظف . وفجأة اظهرا علامات الانزعاج والتململ،

كأنهما هما يدهشان من وجودهما فى هذا المكان : ان أحد أصحابهما قد دخل فى هذه اللحظة • ولكن هذا ، بعد أن القى السلام على الناس بصوت عال : « السلام عليكم » ، وبعد ان سأل ، وهو لا يزال عند الباب ، هل فى المطعم حريرة (١) ، مضى يجلس الى مائدة فى الركن دون ان يحفل بهما . عرف عمر الشاب الداخل الذى أشار له بيده يحييه . انه جمال طراز ، ابن حقيقى لاسرة من « كبار الاسر » ، فتى يشد ابليس من ذيله .

سمع عمر حمزة يقول فى هذه اللحظة :

ـ هكذا . .

وسقطت نظرة الحائك الشاحبة على الرجل ، فتأمله الرجل خلال بضع ثوان فى انتباه ، الا أن فكره كان يطوف فى غـــير ذلك . ان ابتسامة داهية تمحو الآن دمامة وجهة الكثيف • تفرس عكاشة فى حمزة من تحت حاجبيه الضخمين . كانت نظرته قاسية ، وكانت ابتسامته قد اختفت .

تابع حمزة يقول :

ـ لاشك ان جماعتنا عبيد ، اذ لا شىء فى هذه القيود التى توثقهم يفيدهم ، وهم يتحملونها مع ذلك •

قال هذه الكلمات بصوت خافت لكنه واضح . ولم يستطع عمر ان يدفع عن نفسه ذلك القلق الغريزى الذى أيقظه فيه هذا الرجل ذو الجمجمة المفرطحة .

---

(١) حساء يصنع من الخميرة

ثمة شيء في القاعة كان قد تغير . ان عمر يراقب الشابين المختالين اللذين دهنا شعرهما بالزيت . لقد امر كل منهما لنفسه بسجقتين صغيرتين مع الفلفل الاحمر داخل قطعة من الخبز ، فهما ينشبان في السجق أسنانهما ، ويزدردانه بشهية نهمة ، وما هي الا لحظة حتى اجهزا على الطعام ، فنهضا عن مكانيهما بحركة واحدة دون أن ينبسا بكلمة ، ومضيا يدفعان ثمن ما أكلاه بضع قطع من النقود وضعاها على البسطة الضيقة المزدحمة ببيض مسلوق واسياخ كبد نييء وسمك مقلي بارد وخبز مقسم قطعا .

لاحظ عمر في هذه اللحظة ان وجودهما كان ثقيلا على صدور جميع من كانوا بالمطعم ، فما ان خرجا حتى أحس الناس ان الهواء قد خف .

وحين جاء المعلم الى جمال طراز بحسائه تلبث عنده قليلا وسأله:

ـ مع ليمون ؟

فأجابه جمال طراز :

ـ لا .

ـ قطعة خبز ؟

ـ لا .

فعاد صاحب المطعم الى مكانه وراء بسطته ذات المدخل المقدود فيها . وكان بالجدار وراء البسطة كوة جعلت خزانة ونضدت فيها رفوف ، فوضع المعلم صحنا على أحد الرفوف العالية علو قامته ، وادار ظهره للقاعة وجعل يأكل .

وأمام مدخل المطعم كان الخادم ،وهو فتى نحيف شديد البياض شاحب الوجه ، كان واقفا يهوى الموقد الموضوع في كوة فوقها مدخنة. ان أسياخ الكبد الملفوفة بشحم الخروف ، المصفوفة على مشواة ، تصدر دخانا كثيرا يملأ القاعة برائحة حادة من رائحة احتراق الدهن .

وفي هذه الاثناء كان حمزة يتكلم بلهجة واحدة لايرفعها ابدا . ففيما كان عكاشة يشعل سيجارة جديدة ، قال السجين القديم

بسرعة وهو يلعب بلحيته ذات الشعر المنقلب :

ــ يتفق لى أحيانا كثيرة ان أتساءل عن أنفسنا ما نحن ؟ نعـم ؟ ما نحن ؟ هل لك ان تقول لى ما نحن ياصاحبى ؟

فقال عكاشة ساهما :

ــ ما نحن ؟

وألقى عليه محدثه نظرة ماكرة ، وقال :

ــ نعم ، ما نحن .. هل تستطيع ان تقول لى ما نحن ؟

ــ الامر بسيط كل البساطة . اننا لا نعرف ما نحن . ولعلنا فى هذا العالم المخلوقات الوحيدة التى لا تعرف ما هى ، ولا الى أين هى سائرة . لو سألت اية بهيمة ، لعرفت كيف تفهمك ماتريده،أمانحن..

وقبل ان ينهى الرجل جملته ارتفع صوت السجين القديم يسأل :

ــ أيها الانسان ، من أنت ؟

كان لا يزال يملس ثم يخلط كثث لحيته بأصابعه الضخمة الثقيلة القصيرة وكان قد خلع طربوشه الاحمر ووضعه على المقعد قربه . وظل يعذب لحيته مدة طويلة على هذا النحو ، ودمدم اخيرا يقول :

ــ أين أنتم يا رجال الحق ؟

قال عكاشة وهو يحرك أصابعه نافد الصبر :

ــ فلننظر فى هذا الامر .

ــ يظهر أنك اختفيت من المدينة منذ بضعة اعوام لانك نظرت فى بعض الامور عن كثب .

فهز عكاشة كتفيه :

قال حمزة :

ــ فى رأيك ، ما الذى يحدث اذن فى بلادنا ؟

ولكنه فى هذه اللحظة نفسها نسى سؤاله وهمس فى اذن عكاشة

ــ انظر الى ما يجرى فى القاعة ...

فاستدار عمر على مقعده فى رفق ينظر هو أيضا . كان الصبى الذى يعمل « مساعدا » للطباخ يثرثر مع الزبون الذى تدل هيئتـه على أنه حمال . قال له :

ــ ائتنا بما تساوى قيمته ثلاثة « دوروات » أيضا .

كان هـذا الرجل ، الذى لا يراه عمر الا من ظهره ، يقحط بملعقته فى عناية طبق القصدير الذى يأكل منه ، ثم تناول الطاسة بين جوفى يديه ، وشرب السؤر الذى كان فيها ، ولم يلق على مساعد الطباخ،

من فوق كتفيه ، نظرة ضاحكة الا بعـد أن فرغ من ذلك كله .
وصاح المعلم يقول له ، وقد اختبأ نصفه وراء البسطة :
ـ ائتنا أيضا بما تساوى قيمته ثلاثة « دوروات » فنقتسمه بحيث يصيب كل منا ما قيمته « دورو » واحد .
فضحك الزبون ضحكة خالصة ، وكان قد فرغ من طعامه ونهض ، فقال :
ـ اذن تريدون مزيدا ؟ بثلاثة « دوروات » ؟
وعاد يضحك دون أن يتخلى مع ذلك عن شيء من التحفظ . واتضح حين قام انه رجل طويل القامة جدا ، وانه كذلك ذو أنف أقنى ، وان وجهه وجه طفل . كان يمط رقبته ويضحك فى سذاجة .
ـ نعم ، وسنقتسمه فيكون لكل واحد ما قيمته « دورو » .
قال المعلم ذلك ؛ ثم لم يستطع ان يحبس ضحكه ، فأخذ يقهقه قهقهة مختنقة وفى صوته دموع . واخذ الصبى يضحك امام موقده بصوت حاد ، وجعل الرجل الذى تشبه هيئته هيئة الحمالين ـ أتراه كان حمالا ؟ ـ يضحك كذلك بصوت ثخين . وكانت ضحكتهم جميعا ضحكة رضا وتواطؤ .
نظر حمزة الى عكاشة ثم نظر الى عمر ، وقال وهو يبتسم أيضا :
ما اكثر ما يبدو فى هؤلاء الناس من تفـــاهم وسرور ! فهل تظن انهم فى سلام مع أنفسهم ؟ من ذا الذى يستطيع ان يعرف شيئا عما يختفى وراء هذا السلام الظاهر ؟
ان عمر يريد فى هذه اللحظة ان يخرج . نظر الى الشارع من خلال الزجاج . لا خوف ان تهطل الامطار قبل هبوط الليل . لقد انقضى من الاصيل شطر كبير . ان عمر اصبح لايستطيع ان يتنفس ، كأن الهواء لا يدخل رئتيه .
صف الحمال على البسطة عدة قطع من النقود ، وهو يغضن عينيه فى مكر . فنهض المعلم ممتلىء الفم بالطعام ، فلم قطع النقد ثم رد واحدة منها الى يد الزبون .
قال الزبون :
ـ ماذا ؟ هل أعطيتك زيادة ؟
وتقلصت جوزة عنقه ، الناتئة ، الضخمة ؛ وسمعت ضـــحكته الخارجة من الجوف ، مرة أخرى .
قال له صاحب المطعم من خلال الطعام الذى يربك فمه :

— بل احتفظ بهذه ، لتشرب بها قهوة على حسابى .

وضحك وهو يحاول أن يحبس الطعام الذى فى فمه .

فلما اجتاز الزبون باب المطعم ، صاح المعلم يقول له مرة اخرى :

— سنقتسم ، لكل واحد « دورو » ...

واستطاع أخيرا أن يضحك من كل قلبه ، بعد ان بلع ما كان فى فمه .

انتهز عمر هذه الفرصة : فترك الحائكين . هو الآن فى الشارع. وحيد ، حر .. لكأن الهواء قد غفا ، فهو ناعم هادىء ، والمدينة تستريح فى ضياء قاتم عجيب .

غمامات رقيقة تدفعها ريح الصباح ، تجرى فى السماء الزرقاء الشاحبة جريا سريعا . أحس عمر أنه خفيف ، كريشة . فلما وصل الى الكهف علم ان زبيش مات . لقد ذهب مرض التيفوس برفيق عمله فى المصنع . صعق عمر . ان زبيش قد انقطع عن المجىء منذ أيام ، فلم يكترث أحد لغيابه . وكان عمر لا يؤمن بالموت ، مع أنه شيع عددا من الناس الى مثواهم الاخير ... عددا أكبر من أن يحصيه . أما أن يحدث ذلك على مقربة منه ، فهذا ما يدهشه كل الدهشة . انه لا يفهمه . وتراءت له قامة زبيش النحيلة تنهض امام عينيه . رأى الوجه الصغير الشاحب الذى يغضنه التكشير ، وخيل اليه أنه يسمع مرة أخرى تلك الحكايات الفظيعة التى كان يقصها هذا الصبى الاشوه . تذكر كيف كان الفتى يخيف نفسه بنفسه ، كيف كان ينظر الى ما حوله فى اشتباه ، ويخفض صوته ، ويضع اصبعه على فمه قائلا : هس .

كان يهمس باللفظ ، فكأن كلامه آت من بعيد ، من الضفة الاخرى ، من العالم الآخر ... لكأن كلامه صدى غائم لعالم يختبىء وراء ستار عميق .

قال شول :

- ... نعم ... ألم يكن موته خيرا له ؟ لقد ارتاح .

خرج عمر فجأة من احلامه ، انطفأ فى سمعه الصوت الصغير ، صوت الصبى الذى مات .

ودمدم الامين يقول :

- ولدوه ، فعاش ، ولعب ، وتحرك فى الحياة ما شاء له هواه أن يتحرك . ثم ماذا ، هاهو ذا قد مات ... وكأنه لم يكن ..

واضاف الامين :

- يأيها الناس الذين لا تحفلون الا بهذه الحياة الدنيا ، ماعساكم فاعلين بين يدى الله ؟ .. يا ويلكم من الله !

قال دلو :

- الشقاء ؟ خلقنا له وخلق لنا .

فحرك الامين شفتيه يريد ان يجيبه ، واهتز شعر شاربه ولحيته، الا أنه لم ينطق بحرف .

قال باصقالي محتجا على عذا الحديث ، وفي عينيه ذعر شيخوخة خائفة :

ـ مات ، الله يرحمه . مالنا ولتكرار هذا الحديث في غير انقطاع !

تذكر عمر الجدة وبنت العم الصغيرة ، اذن لقد مضى الصبي الفكه يدركهما في عالم الاموات . لا حيلة للمرء في رد هذا القضاء. انقبض قلب عمر .

وبعد بضع لحظات جاء ماحي بوعنان ، وقد ابلغ النبأ ، جاء الى المصنع من أجل ان يصحبه عمر الى منزل أم زبيش .

فما رأى عمر البيت من بعيد حتى أصاخ بسمعه ، ان ولولات حادة ترتفع عند آخر الشارع الضيق . والصوت ينتقل من الالم الى الدهشة ، ومن الدهشة الى أقوى تعبير عن اليأس . وفجأة توقف الصياح ، وخيم الصمت .

دخل الصبي ليبلغ أهل البيت أن المعلم جاء . ولبث بوعنان ينتظر امام الباب . ولكن ما أن وضع الفتى قدميه في البيت حتى استقبلته ولولات جديدة . هي بكاء لا سبيل الى حبسه ، بكاء بصوت أبح لم يلبث عمر ان عرف فيه صوت عائشة ، أم زبيش . اشتدت رهبة الصبي .

كانت عائشة جالسة وسط عدد من النساء تحلقن في الفناء تحت الرواق ، وقد اخذت تلطم صدرها وذراعيها ووجهها وهي تنتحب . كانت الدموع تسيل على خديها المخدشين ، وعيناها السوداوان ترسلان نظرات كنظرات بهيمة مروعة ، والزبد يرغي على حواف شفتيها . ظل عمر ينظر اليها ناسيا المهمة التي جاء من أجلها ، وينظر الى هؤلاء النساء اللاتي يبكين معها . ولكن عائشة عرفته ، فتأملته لحظة وهي ترتعش ارتعاشا شديدا ، وقد أفلتت غدائر شعرها من المنديل الذي كان يحبسها . وأشارت له أخيرا أن يقترب ، فمضى اليها متسللا بين جمهرة النساء وهمس في أذنها ان المعلم واقف على الباب يريد أن يراها . فنهضت على الفور وردت غدائرها الى ماتحت المنديل الذي كان يحبسها . وأشارت له أخيرا ان يقترب ، فمضى النساء تثرثر .

فلما عادت يتبعها ماحي بوعنان وعمر طلبت الى النساء ان يختبئن . فهرعن جميعا الى الغرف المجاورة ، الا العجائز منهن ، فقد اكتفين

باسدال الحجاب على وجوههن ولبثن فى أماكنهن . دخـــل الرجل والصبى وعائشة الى الغرفة الصغيرة المظلمة ، التى يتمدد فى وسطها كفن مسجى لاح للصبى طويلا مفرطا فى الطول ، فتحير الصبى ودهش. لكان الموت قد مط ذلك الصبى الصغير فجعل منه الرجل الذى لن يكونه .

جثا ماحى بوعنان على كعبيه أمام جثمان الميت صامتا ، وأخذت شفتاه تتحركان بسرعة ، فما هى الا لحظة حتى اخذت الدموع تتساقط من عينيه . وكانت الام واقفة تراقبه وقد شبكت يديها على بطنها ، وجف وجهها وجفت عيناها . واقتربت النساء ترصد المشهد من عتبة الباب . فقام بوعنان فى عناء وهو يتنفس تنفسا قصـــيرا ، فهربت النساء مرة أخرى مروعات . وفى هذه اللحظة رأى الصبى المعلم يضع فى يد عائشة شيئا ما ، فاذا بالمراة القصيرة الرثة تأخذ تكيل لهالشكر فى اضطراب ومذلة ، ثم اذا هى تنفجر باكية منتحبة على حين فجاة .

وخرج ماحى بوعنان وعمر ، وعادت ولولات الحداد .

قال بوعنان بصوت خافت فى الشارع :

ــ مات ... طيب ... ماذا نعمل ؟

***

لبث عمر بضعة أيام فى حالة من الاضطراب . كان يذهب ويجيىء ويقوم بألف عمل وعمل ويجرى فى الشوارع الغارقة فى جو الربيع ، وهو شارد اللب ذاهل . ومع ذلك كان شعور غامض بالسعادة يغزو قلبه على غير علم منه ، ويوقظ فيه أصداء خفية عذبة لا يدرك الصبى كنهها ولا يستطيع الافصاح عنها .

غير ان الجو لم يلبث ان اجتاحه البرد على خلاف كل ما كان ينتظر وعادت تغطى سماء المدينة سحب كثيفة كأنها الرصاص ثقلا . وأخذت تهطل أمطارا رقيقة بغير انقطاع فتلف بغلالتها المبانى والخضرة التى بدأت تنبت على أغصان الاشجار ، وأطياف المارة . ان جداول صغيرة تتواثب على ارض الشارع ، ثم تجرى مسرعة الى افواه البلاليع . وعادت المدينة تغرق فى أفكارها السود . وكثر جمهور المتسولين كثرة لا عهد بمثلها من قبل .

هذه الوجوه المغلقة ، هذه الاعين التى لا تنظر الى احد ، أتراها تعلن عن قيام عهد جديد ؟ هؤلاء الشياطين الذين يعتقد جميع الناس انهم لا عقل لهم ، أتراهم يعلمون من الامر ما لا يعلمه غيرهم ؟

لقد عيل صبر السكان ، فأصبحوا يتجاهلون وجود هؤلاءالمتسولين،

ولا يكترثون بهم . وكأن عودة الصحو ، قد ابعدت تلك التهديدات الخفية التى أثقلت المدينة فى لحظة من اللحظات ، غير أن رجال الشرطة أصبحوا الآن يرابطون فى كل ركن من أركان الشوارع .

وفى الكهف لم ينس الناس زبيش فورا ، فمن حين الى حين يروى أحد الحائكين فكاهة من فكاهاته ، أو يقلد مشيته ، أو يتذكر حكاية من حكاياته ، ثم يأخذ يشتم الصبى على سبيل المزاح ، كأن الصبى لا يزال فى الكهف يسمعه . وقد أحل محل زبيش فى العمل بالمصنع فتى من الضواحى ثقيل بدين .

حين عادا الى هذا المقهى مرة ثانية ، ما ان جلسا الى احدى الموائد حتى سمعا صوتا ضخما أبح يصل اليهما من خارج :

ــ يا الله ، ساعدني يارب ، أصبحت لا أحتمل الحياة . لماذا تنسى عبدك يارب ؟ اقبض اليك هذه الروح التي هي ملكك ..

ثم رأيا رجلا رث الثياب مغبرا ، هرما ، مستندا بذراعه الى طفل يتهافت على الارض عند مدخل المقهى ، ويضع عصا بين ركبتيه المرفوعتين . انه يميل برأسه على صدره كأنه مكسور العنق ، ويلبث على هذا الوضع لا يتحرك ، حتى لكأنه يغفو ، غير ان يده الضخمة ذات الاظفار الطويلة لا تدع قبضة الصبي النحيلة ، تتشبث بها تشبث اليائس .

فلما رأى أحد زبائن المقهى هذا المنظر ، نهض واقفا بين الموائد ، ودفع شاشيته الحمراء الفاقعة ، وصاح بالمتسولين قائلا :

ــ أأنتما آتيان من الريف ؟

كان واضحا انهما آتيان من الريف ، فسؤاله اذن من نوع الاسئلة التي لا جدوى فيها ، ولكنها تطرح دائما .

دمدم الشيخ الهرم يقول وهو يرفع راسه في مشقة :

ــ نعم ايها المحسن .

واضطربت شفته السفلى وتركت لمجاجة من لعابه أن تقطر من فمه . ونظر المتسول طويلا الى جميع الناس من مكانه ذاك .

سأله الرجل :

ــ هل في الريف مجاعة ؟

وكأن الطفل قد تدحرج على الشيخ تدحرج الكرة .

قال الشيخ في مثل رجع الصدى :

ــ مجـــاعة !

ثم شخر شخرة غريبة مزعجة . فاستدار عكاشة في هذه اللحظة مع كرسيه نحو الباب ، ونظر الى الشيخ . كان الشيخ ذاهلا ، مبهم العينين ، متجمد القسمات .

وقال أخيرا بصوته الأصم الثقيل :

ـ حتى عصافير ربنا تموت جوعا هناك .

ـ العصافير ؟ آه · آه · آه اذن لم يبق على الاشجار ثمار ولا بقيت بذور برية · اتيتم انتم على كل شيء ؟

وفغر الزبون فمه الواسع ، وانطلق في ضحكة صاخبة · ان قوة ظافرة تخرج من شخصه . واسنانه البيضاء تلتمع في وجهه العريض الذى عنى بحلق شعره عدا شاربيه الكبيرين المشدودين ·

ـ من اجل الأكل أنتم أقوياء .. آه ، آه ، آه ، أما من أجل العمل فتلك حكاية اخرى . هل يمكن ان تنال المجاعة من انسان يعمل ؟ أنتم اناس تؤثرون ان تستعطفوا على أن تبذلوا شيئا من جهد .

وانطلقت تلك الضحكة نفسها مرة اخرى تهز صدره الذى يشبه أن يكون صدر هرقل . فخاف الشيخ الهرم خوفا ما كان لسـوط يفرقع فوق رأسه أن يبعثه فى نفسه ·

ـ آه ... أيها المحسن ...

فهز الرجل رأسه وقال :

ـ الارض لابد أن تنتج دائما ·· الا ان تكون الايدى التى تعمل فيها خبيثة ·· وعندكم قد خبثت الايدى وخبثت القلوب جميعا · ان المرء يستطيع ان يستنبت الصخر نفسه اذا أراد .

كان الصبى لاطيا بالشيخ يتفرس فى الرجل فى عنف موجع . وصمت المتسول كالاخرس ولم ينطق بحرف ·

عندئذ اتجه الرجل اليه ووضع فى يده صدقة · فاخذ المتسول يدعو له بصوته الغليظ الخشن ، ونهض وهو يئن جارا الصبى من يده · ولكنه قبل أن يقف على قدميه تماما ترنح واوشك أن يسقط . ذلك أن الصبى وقع على الارض ، وهم أن يوقع معه الشيخ ·

عاد الزبون فجلس فى مكانه ، وأخذ يتحدث مع رفيقيه فى همـة وحرارة .

نهض الصبى فى عناء · ومضى هو والشيخ فى الشارع الذى يقابل المقهى . غير أن نوبة من سعال طويل استبدت بالشيخ فتوقفـا مضطربين ، ثم سمع صوت الشيخ وهو يقول للصبى مؤنبا :

ـ ان لم تقف على ساقيك تركتك هنا .

وغابا بين الناس ، غير ان صوت الشيخ ظل يسمع متكسرا وهو ينادى فى بعيد :

ـ يا اخوان ، يا مؤمنون ...

ظل عكاشة صامتا طوال ذلك المشهد . ثم عاد الى وضعه الأول

أمام عمر دون ان يقول كلمة واحدة ، واستند بكوعيه الى المائدة .

لبث ساكنا لا يخرج عن صمته . اخذ عمر يشتبه فى النية التى كان يبيتها الحائك حين قاده الى هذا المكان ، الى هذا المقهى . كان قد أدرك أن عكاشة ينتظر منه أمرا من الأمور . فما هو هذا الأمر ؟ أيقين أم عزاء ؟ أتشجيع أم التجاء ؟ لم يستطع عمر ان يعرف ذلك . ولعل عكاشة نفسه لم يكن يعرف . غير ان عمر ادرك انتظاره هـذا ادراكا واضحا . فلما خطر بباله ذلك ، استولى عليه غضب أخفاه . ونظر الى عكاشة ، ولكن عكاشة كان خافض الرأس .

ما الذى حدث ؟ لماذا يحس بحلقه جافا هذا الجفاف ؟

اتضح الآن كل شىء : كان عكاشة يريد ان ينقل اليه ما به من كرب. لعله كان يلاحظ هو نفسه ذلك ، غير ان عمر على يقين من هذا .

وفى هذه اللحظة رفع عكاشة رأسه ، فاذا بالصبى يشعر بقلق مفاجىء . بدا له ان صديقه قد اتخذ قرارا خطيرا ، فان فى وجهه كثيرا من الجـــد .

قال عكاشـــــة :

ـ هل نذهب ؟

فتحير الصبى لا يعرف ما الذى يجب أن يعمله أو يقوله . ونهض عكاشة نهوض من يمتثل لأمر صدر اليه ، فتناول من جيب سترته بعض النقود فتركها على المنضدة ، وترك الرفيقان المقهى الصـــغير المظلم الهادىء .

فما أصبح عمر فى خارج ، حتى أحس بقلقه يذوب ، ثم لم يبق فى نفسه من ذلك كله الا شىء من ارتباك فى قرارة أفكاره .

- ١٣ -

كذلك اخذ عكاشة يتكلم عن السفر . قال : سيترك هذه المدينة ، وسيترك الناس كلهم ، حتى أسرته . نعم سيمضى ... وأخذ عمر يفكر . لقد كان يتوقع قرارا من هذا النوع . ولكن ، ما هو فى هذا كله ؟

فهم أخيرا لماذا كان عكاشة لا يأخذ عمله مأخذ التقدير والاعتبار ، شأن سائر العمال . كان عكاشة لا يتحدث عن عمله خارج المصنع . هذا العمل الذى يستنفد اكبر شطر من حياته ، كان ينساه متى خرج من المصنع . ذلك انه وسائر العمال ، كانوا يتطلعون الى شىء آخر ، ويؤملون شيئا آخر . ما الذى يتطلعون اليه . ما الذى يؤملونه ؟ لاشك انهم لا يعرفون عن ذلك شيئا . ولكنهم يتطلعون ويؤملون . اما عكاشة فقد تطلع وأمل : تطلع الى السفر وأمل السـفر . أتراه كان بذلك يريد ان ينسى ظروفه أم كان يريد ان يتحرر منها ؟ هل يكون سفره من قبيل الاحتقار لعمله ، ولنفسه ، ولرفاقه ؟ هل يكون سفره من قبيل الاحتقار ؟ الاحتقار والشعور بالعار ؟ لطالما سمع عمر هـذه الكلمات تتردد فى الكهف :

« نحن لا قيمة لنا ، لا تتعبوا انفسكم فى المناقشة . نحن لا قيمة لنـا » .

وكثيرا ما كان هذا او ذاك من العمال يضيف الى ذلك الكلام قوله :

« هكذا خلقنا الله .. ولا حيلة لنا فى الأمر » .

وكان زملاؤه الحائكون ، رغم ما بينهم من فرق فى السن والمزاج والآراء ، يتشابهون فى هذه النقطة : انهم يتحدثون عن أنفسهم دائما فى اشمئزاز . وكان عمر يفكر فى هذا بحزن ومرارة . لعله أخطأ فى أنه لم يفهم اشمئزازهم . أتراهم قادرين ، بالتلمس بعد التلمس ، على أن يجدوا لانفسهم مخرجا ؟ .. وعملهم ؟ فيم كان يفيدهم عملهم اذن ؟ لماذا يقومون به ما داموا يحتقرونه ؟

وفى أثناء ذلك لم يطرأ على سلوك عكاشة أى تغير . لا يزال هادئا ذلك الهدوء نفسه ، صامتا ذلك الصمت نفسـه . وكانا اذا التقيا فى

المطعم ، ظل عكاشة جالسا لا يتحرك ، ولا يبالى شيئا ، ولبث ينظر الى امام بانتباه لا يضعف ، بينما الوقت يمضى . كان يظل على هـــذه الحال مدة طويلة لا يتحول عن النقطة التى اختار ان ينظر اليها من الفضاء . ثم اذا هو ينهض ، دون أن ينبس بكلمة واحدة ، وينظر الى عمر ، فينهض هو الاخر ، ويسيران فى الشوارع التى تدحرج سيل المارة والعربات المتدفق فيها ، وتحملها فى رفق ، فى رفق شديد ، الى حيث لا يعرفان ، وعكاشة غارق فى تفكيره ، مصيخ بسمعه ، كأن المدينة تهمس فى اذنه بشىء ..

وكان الحائك يزداد انطواء على نفسه يوما بعد يوم . وسأله عمر ذات مرة :

ــ ستسافر ... وبعد ؟

ولكن عكاشة أجابه :

ــ يجب أن يولى البشر ما يستحقون من احترام . لماذا صار العالم الى ما صار اليه ، لماذا صار العالم شيئا لا يشتهى المرء ان يلقى عليه نظرة ؟ لفقدان الاحترام . ان الذين يحترمون اخوتهم بنى الانسان ، لا وجود لهم اليوم على هذه الارض . كيف ينظر الينا الاوربيون مثلا؟ وكيف ينظر ماحى بوعنان الى غيره من الناس ؟ الاوربيون ينظرون اليه على أنه «العربى» أى الانسان الذى ليس له مثل أعلى ، الانســـان المتمرغ فى الجهل والاهمال والاستسلام ، الانسان الذى لن يتبدل مهما يبذل من جهود من اجل ان ينظف نفسه من الوحل ، الخ ... وماحى بوعنان ينظر الينا على اننا جياع ليس لنا مثل أعلى ، على أننا اقرب الى البهيمة منا الى الانسان ، على أننا اناس كسالى نريد أن نعيش من دون ان نعمل ، الخ ..

ــ أنت تكره جميع الناس .

ــ جميع الناس ؟

وفكر عكاشة لحظة ثم أضاف :

ــ ربمـــا ...

ــ ذلك بعينه هو ما يحز فى النفس .

شد عكاشة قبضة يده ، ولوح بها لشاهد خفى لا يرى .

***

فى ذلك الصباح اشتد صياح الاحمر وصراخه ، وجاء بعد لحظة الى عمر فتفرس فيه من اخمص القدمين الى قمة الرأس ، ثم خلط الخيطان التى أنفق الصبى ساعات طويلة فى تكبيبها ، فلم ينطق الصبى

بكلمة ، وعاد يصلح ما أفسده الأحمر من عمـــــله . وكان الحائكون الآخرون يعملون صامتين . ان هناك شيئا يعذب حمدوش تعذيبا حاصا فى هذه الأيام : لقد أصبح لغزا من الالغاز دون ما سبب ظاهر، فهو يجتذب الناس ، ولا ينظر الى احد مواجهه ، ثم اذا هو يثور على حين فجأة . ان هناك عداوة لا سبيل الى فهمهـــا تثيره على جميع الناس ، حتى ليحس المرء أنـــه لا يتورع عن ارتكاب أى عنف . كان يغضب ، ويشتم ، ثم اذا هو يهدأ دفعة واحدة .

فلما فرغ عمر من اصلاح ما افسده الأحمر من عمله ، مضى يجىء بشلل اخرى من شلل الصوف المنشورة فى الخارج لتجف . ان رأسه بطن طنينا موجعا . انه جائع .

طافت فى ذهنه خواطر كره وبغض نحو الاحمر . وقال فى نفسه ، على غرار عكاشة : « يجب أن أذهب » .

وتساءل بعد لحظة . « ولكن الى أين ؟ ومن أجل أن أنتهى الى ماذا ؟ .. »

فلما عاد مثقلا بكبب الصوف ، انبجس حمدوش وراءه ، وهمس فى عنقه يناديه :

ـ عمر ...

فأدار الصبى رأسه . ان فى عينى الاحمر تعبيرا لم يره الصـــبى فيهما قبل الآن .

ـ اضربنى يا عمر .

قال حمدوش ذلك وهو يقدم للصبى ظهره ، وعاد يردد بصوت خافت :

ـ اضربنى ، اضربنى .

فلما رأى عمر لا يتحرك ، مضى الى نوله وهو يقول :

ـ أنا سأمان .

ان الناس لا يعيشون الحياة التى يجب ان يعيشوها ، لكأن سناجا أسود قد وضع فى قلوبهم .

ان صداقة ملتبسة مترصدة قد نشأت بين حمدوش وعمر . لقد حاول عمر ان يفهم الاحمر . ولكن محاولاته سرعان ما أخفقت ، فان الأحمر قد أساء استقبالها . كان حمدوش يثور فجأة ، وتظهر عليه علائم الاهتياج . ذلك أن ما حدث في يوم الأحد التالي ، حين مر عمر بالمصنع متعطلا : فوجده فيه ، فاذا بالأحمر يكيل له سيلا من التقريع ، قال له :

ــ أنت تهتم بأمرى آملا ان تدلني على طريق الخير ، أو أن تكتشف منه شيئا في نفسي . هذا منك اسراف في طيبة القلب . ولكنك تضيع وقتك سدى ، صدقني .

وكان في لهجة هذه الكلمات ما جعل عمر ينظر اليه دهشا . قال لــه :

ــ ما يحملك على هذا الظن ؟

فأجابه حمدوش مستاء :

ــ ما هو بالظن ، هو الواقع أراه فيسوؤني ، هذا كل شيء ..

قال حمدوش هذه الكلمات « هذا كل شيء » بصوت قاس أدرك فيه عمر عداوة مبيتة .. فلم يقل الصبي شيئا . وما عساه يقول ؟

وظل حمدوش يصب عليه غضبه . فتركه عمر بعد لحظة ، تركه يحضن سخطه في الكهف وحيدا . وفيما كان يخرج سمعه يقول هذه الكلمات :

ــ امض ، فلست خيرا من غيرك .

وبعد الظهر تحاشى عمر ان يمر بالمصنع مرة أخرى ، وآثر ان يتجول في الشوارع . المدينة متجهمة رغم أن الجو دافىء . ان أول أوراق الاشجار تخرج رءوسها من البراعم خجلى شاحبة .

ففيما هو في ركن احد الشوارع اذ هو يجد نفسه فجأة أمام ذلك الرجل الذي كان في تلك اللحظة لا يريد أن يلقاه . كان حمــــدوش مقبلا وهو خافض رأسه ، يدوس غبار الارض بقدميــــه في ضجر واشمئزاز . فلما لمح عمر ، توقف عن السير فورا ، ومال برأسه الى جانب ، وشزر فمه ، وتفرس في الصبي وهو مغمض عينه اليمنى نصف اغماض :

ــ الى أين أنت ذاهب هكذا ؟
ــ لا أدرى . وانت ؟ قد اذهب انا الى عكاشة فى المطعم ، ولكن ..
ــ دعك من « ولكن » هذه . سأذهب اليه معك . هناك ما احب ان أقصه عليه .

كان عمر لا يضمر عداوة لحمدوش ، وانما كانت تسوؤه نزواته العنيفة . ان هذا الشيطان الأحمر الذى يحنق كل واحد من الناس، ويهين كل واحد من الناس ، كان يبدو عليه ان نفسه تنوء بحمل ثقيل لا يرى .

أذعن الصبى ومشى دون أن يقول كلمة ، وكذلك فعل حمدوش سائرا سير عمر .

فكان يتعمد فى اثناء الطريق ان يدوس على اكوام من الصوالة أو على برك من الماء ناقعة ، كما كان يزعج النساء اللاتى يمررن قربه بكلمات ملتبسة . فلما وصلا الى باب المطعم رفع عمر عينيه ونظر اليه . فدفع حمدوش الباب الاخضر ذا المربعات الصغيرة دفعة مستعجل ، واجتاز العتبة ، فما ان خطا خطوة حتى اصطدم بصاحب المطعم الذى كان يجتاز القاعة المعتمة فى استرخاء ، وأخذ يشتم ، ودس فى يده مع ذلك قطعة من النقد وأمره فى نزق قائلا :
ــ هيىء لنا شايا ، وارسل من يجيئنا بفطائر ..

وقد دخل عمر وراءه ، فلمح عكاشة جالسا على طرف مقعد فى احد الاركان ، مسندا كتفه الى الجدار . لم يكن بالمطعم كله أحد غيره . وكان على المائدة كأس من الشاى فرغ نصفها ، وعلبة زرقاء من سجائر باستوس .

فلما رآهما نشق من سيجارته نفسا طويلا ، ورد رأسه قليلا الى وراء ، ثم أخرج الدخان نافذا من منخريه . وبيده القابضة على السيجارة لوح لهما باشارة مودة لا تكاد ترى . فخلع حمدوش سترته ، ورماها على أحد المقاعد ، ثم جلس الى المائدة التى يجلس عليها عكاشة ، دون ان يدعوه عكاشة الى الجلوس ، ورفع ذراعه فلطم بقبضة يده صدره عدة مرات وهو يقول :
ــ ها قد جئت اليك يا عكاشة . هذا انا ، انا نفسى . انا شقى ؟ هه .. اننى لاعرف ذلك حق المعرفة . ما أنا الا أقذار تداس بالاقدام . ما الذى أسعى اليه فى هذا العالم ؟ الى أين انا ذاهب ؟ لقد فسد قلبى .

قال حمدوش ذلك ، وازداد وجهه شحوبا . كز عمر فكيه . ومضى

حمدوش يطلق آهات مختنقة ثم صمت . ظل وجه عكاشة موصدا لا يدل على شيء . انه واضع كوعيه على المنضدة ، ومسند ذقنه الى يديه الضخمتين . كان ينظر في عيني الأحمر ، وقد انفرجت شفتاه عن أسنانه المتلألئة بابتسامة مبهمة .

سأله حمدوش بصوت مضطرب :

ـ ما بك ؟

ـ لا شك انك قارفت ذنبا من الذنوب حتى اصبحت على ما انت عليه من حنق .

لم يجب الأحمر بشيء . ناداه عكاشة :

ـ حمدوش

فانتفض حمدوش ، واكتسى وجهه هيئة المحاصر . قال له عكاشة مدمدما :

ـ انت طيب القلب يا حمدوش ، اعرف هذا .

فصاح حمدوش وهو زائغ البصر :

ـ طيب القلب !

ثم نهض كالمعتوه ، واخذ يصيح بصوت عال :

ـ اسمعوا يا مخلوقات الله .. ان قلبي يحب كل ما هو خير ونبل !

قال ذلك وشخر عدة مرات . ثم لم يلبث ان همس يقول في تدفق بصوت جاف :

ـ ولكن انتظر أيها الاخ . انتظر ان تعرف ما فعلته اليوم !

فحدق اليه عمر يرى ما يلوح في وجهه من تصعر مضـــطرب . ولكن حمدوش تابع يقول :

ـ في هذا الصباح ، في ساعة مبكرة من هذا الصباح ، ذهبت الى ماحي بوعنان اطالبه ببضعة قروش . فرايت عند هذا الخنزير شريكه المفتش نفناف . فما ان أبصر بي نفناف حتى رفع سبابته الى انفــه وباعد عينيه ، وتفضل ففتح فمه وقال :

ـ « أنتم جميعا ، هنالك ، سكيرون ولصوص وما لا يعرفه أحــد الا الشيطان ... أفضل شيء هو أن يوضع قطيعكم هذا الجربان في السجن . ان صديقي ـ واشار بابهامه الى ماحي بوعنان ـ ان صديقي هذا الذي تراه ، يحتمل منكم ما لا يحتمل ، فهو رجل ذو فضــل . ثم انك أنت ، عدا ذلك بهيمة من البهائم ..

« نعتني بهذا النعت اللطيف ، وأمسك بي من ياقة السترة وهزني

هزا . ثم غضن جبينه . فاحسست عندئذ ان الامور سوف تجرى على غير ما يرام .

« ـ قل لى ، ان بينكم رجلا تافها حقيرا اسمه عكاشة ... عكاشة ابن مراح ... هه .. أليس كذلك ؟

« وفكر قليلا ثم نظر الى على حين فجأة نظرة شزراء وهو يسأل :

« ـ ماذا يقول هذا الرجل ؟ تكلم . يقول « اننا لن نحصل على شيء ولن تتبدل أحوالنا ما لم تقلب الامور عاليها سافلها . يجب أن تغير الوضع الذى نحن فيه .. »

« ذلك ما يقوله هذا الرجل .

« ـ ماذا ؟

« ورشقنى بنظرة كالسهم .

« ـ ان تغير الوضع الذى نحن فيه ... ماذا ؟

« ـ آ ... لا أدرى ... انه لم يقل هذا الكلام .

كان عكاشة مغمضا عينيه لا يتحرك . وسيجارته ملتصقة بشفتيه لا تتقد . غير انه لم يلبث أن مصها فخرج من ذلك صفير خفيف . ارتعش عمر . ثم نفث عكاشة الدخان ، فاختفى وجهه الكبير ذو اللحية وراء هذه السحابة .

عكاشة صامت ، وحمدوش يحدق اليه في نهم . ثم اذا بحمدوش يضرب المائدة بقبضة يده المشدودة ضربة قوية أوجعته ، فينتفض على المائدة كل شيء : القدح والسجائر . ان عمر يرقب المشهد مشدوها . وفجاة استبدت به رغبة لا سبيل الى مقاومتها في أن يضحك ، وفى أن يضربه أيضا ، وفى أن يصيح به « كفى » ، لكنه كان فى الوقت نفسه يخشى ان يفتح فاه . نظر الى صاحب المطعم الذى كان يغفو على كرسى وراء البسطة وقد مال رأسه على كتفه . فبدا له كل شيء أكثر سقما .

وتابع حمدوش يقول بصوت أبح أبيض :

ــ وسألنى تفناف مستعلما أيضا

« ــ والآخرون ؟

« ــ الآخرون ؟ (نظر حمدوش الى ما حوله خلسة بطرف عينه ، وخفض صوته) . الآخرون ؟ لا شيء » هكذا قلت له .

« ــ والسجين القديم ؟ ان بينكم رجلا كان فى الماضى سجينا محكوما عليه بالاشغال الشاقة ، اذا لم يخطىء ظنى . هو أيضا ..

« ــ هو أيضا ماذا ؟

« ــ يحرك لسانه .

« ــ أهذا كل شيء ؟

« ــ نعم هو كل شيء .

« قال ذلك واشهر اصبعه فغرزها فى صدرى ، ثم أضاف :

« ــ حذار يا أحمر .

« فخفضت رأسى » .

قال الاحمر هذه الكلمات وهو يتكىء بيديه على المائدة الوسخة اللزجة منحنيا ، وينهض نصف نهوض . كان يميل الى امام كمن يستجمع قواه ليثب ، ثم قال ينفخ فى وجه عكاشة بصوت لاهث :

ــ هل فهمت الآن ؟

فاذا ببريق يشتعل فى عينى عكاشة على حين فجاة ، ثم ينطفىء بسرعة كما اشتعل بسرعة . قال عكاشة وهو يهز رأسه ويقطب

حاجبيه ، وقد لاح في وجهه العناد :

ــ ليس لهذا كبير شأن .

فوثب حمدوش على قدميه كأن نابضا يدفعه الى فوق ، واراد ان يعترض . ولكن عكاشة وضع يديه على المائدة هو الاخر ، قبل أن يقول حمدوش كلمة واحدة ، وأكد يقول له بلهجة واثقة :

ــ أن لك قلبا طيبا يا حمدوش ، انك تحرق دماءك حرقا ...

ــ لماذا تقول لى هذا الكلام ؟ لماذا ؟

وهز الاحمر رأسه فى حزن شديد ، حتى خيل الى عمر انه سينفجر باكيا منتحبا .

أجابه عكاشة ببطء :

ــ لتعلم هذه الحقيقة .

فهدأ حمدوش فجأة ، وتمتم يقول بصوت خافت ، وقد لاح فى وجهه الوجوم :

ــ ليتنى أمضى أتابع مصيرى فى غير هذا المكان . يجب على ان أذهب .. يا لسوء طالعى ! ...

وتبللت نظرته التي يحجبها نوع من دخان احمر . واخذ يحدث نفسه كأنما هو نسى وجود عكاشة وعمر .

ولكنه لم يلبث أن استيقظ من ذهوله ، فقال عندئذ فيما يشبه الانين

ــ لا ، مستحيل

دخل الى المطعم رجل يرتدي ثياب العمل الزرقاء وينتعل حذاءين باليين ، وهو يحمل بيديه سبحة من الفطائر عقدت بجريدة نخل ، فأفاق صاحب المطعم من خدره ، ونهض فتناول ابريقا كان ينقع فيه الشاى ، واتجه الى الرجل فأخذ من بين يديه الفطائر بطرف سبابته ، ومضى يضع الابريق والفطائر على المائدة أمام الاصدقاء الثلاثـــة ، بينما كان الدخيل يعود أدراجه دون ان ينبس بكلمة .

صاح حمدوش يقول :

ـ عظيم .

ورفع الابريق فى حماسة ، فصب منه دفقة عارمة فى كأس عمر أولا ثم فى كأس عكاشة ، وملأ بعد ذلك كأسه . ولم ينتظر لحظة واحدة ، بل حمل الى فمه فطيرة من الفطائر الساخنة فبلعها لقمـة واحدة ، والحق بها كأس الشاى المحرقة التى صبها لنفسه .

قال يتمتم وهو منتفخ الفم :

ـ أنا مسرور أيها الاخوان .

وغمز بعينه . لقد كان فرحا حقا .

ـ آه .. أنا مسرور . اننى لا أعرف ما الذى أحسه فى اعماق قلبى .

قال ذلك وهو يلطم صدره فى مكان القلب ، بقبضته المشدودة ثم مسح شفتيه وعاد يقول بلهجة أهدأ :

ـ حاولا أن تفهمانى .

فأمن عكاشة على كلامه بحركة من رأسه . كان عكاشة يأكل هو ايضا .

صاح حمدوش يقول بلهجة الظفر :

ـ ها ... هل رأيت ؟ هو اذن صحيح ما قلته . ان فى نفسى شيئا من كل شيء ، لو علمت ... ولست أدرى أين أضع قدمى . النتيجة. لا أصلح لشيء . عبثا طوفت فى كل اتجاه : لا شيء . لا الأخلاق تجدى ولا الحض على الخير ... لا شيء من ذلك كله ينفع . لست اتورع عن شيء ، لست أتورع عن بيع العالم كله ببصلة ، كما يقال ... حتى دينى

لا اتورع عن بيعه ببصلة . يالها من تعاسة . اننى أشبه بالدوارة التى تدل على اتجاه الريح : ادور ثم ادور فى جميع الاتجاهات

كان حمدوش يتكلم من غير حذلقة ولا ادلال . لم يعرف عمر كيف يفكر . ان هذا كله يهز نفسه هزا قويا . انه مهموم حيران

وكان عكاشة يسحب من سيجارته انفاســا طويلة ، وقد اغمض عينيه نصف اغماض ، ثم لا ينفث الدخان الا بعد مدة ، فاذا نفثه انتشر على شكل حلزون الى غير نهاية . وكان هذا الدخان يلفهم جميعا . وكان جفناه يرتعشان فى بعض اللحظات ، فيطبقان . وكانت غضون قاسية تخدد جبينه .

وانتصب فجأة يقاطع الاحمر بقوله فى خشونة :

ــ كفى حديثا فى هذه الامور ! هذا الكلام كله قد سبق أن أضجرتنا بترديده ..

فرفع حمدوش كتفيه الى أذنيه ، كمن صب على رأسه قادوس ماء بارد .

وقال عكاشة مقرعا ، وقد ظهر فى وجهه الاستياء :

ــ اننا نمشى حفاة ، وأسمالنا لا تكاد تخفى ما بنا من بؤس ، وليس فى بطوننا ولا فى رءوسنا الا فتات وأوضار

فأخذ حمدوش يحك نقرته وهو ينظر اليه فى دهشة . ثمتم يقول :

ــ لست أخالفك فى الرأى .

ومد يده الى علبة سجائر الباستوس ، رغم أنه ليس من عادته ان يدخن ، فسل منها سيجارة وأشعلها من العقب الصغير الــذى كان عكاشة يقبض عليه بين السبابة والابهام . سحب من السيجارة نفسا ثم نفث الدخان كله على الفور ، وعاد ينشق نفسا آخر . قال بلهجة الاهتمام والاعجاب

ــ ما أكثر ما تدخن !

ــ أدخن ما كان معى سجائر ، حتى اذا نفدت توقفت عن التدخين .

فلما سمع الاحمر هذا الجواب انفجر يضحك قويا ، وهو يقرع بقدميه الارض ، ويهز رأسه ، وينثنى نصفين . قال :

ــ هذا اسمه كلام حقا .

ثم لم يحدا بعد ذلك ما يقولانه من كلام . ان حمدوش جالس على مقعده وهو فى حالة عصبية . واضح ان هناك فكرة تشغــل باله . فتارة يقرب رأسه من عكاشة يتفرس فيه ويركز عليه انتباهه كله ، وتارة يشيح بوجهه . والظلام يكاد يخيم فى المطعم .

اخذت الاشياء تغيم . قال حمدوش وهو ينهض بوثبة :
ـ يجب أن اذهب الى « هناك »
ففهم عمر ما يعنيه بقوله « هناك » . ان كلمة « هناك » هذه تعنى زارا التى اودعها الاحمر قلبه
وأضاف حمدوش شارحا دون أن يسأله أحد شيئا :
ـ يجب أن أذهب الى « هناك »
عندى ، الوحيدة ، الاولى ..
قال ذلك وهرع يخرج من المطعم . وبقى عمر وحده مع عكاشة .

وبعد قليل خرجا من المطعم هما أيضا . وفيما كانا يطوفان فى المدينة على غير هدف ، صامتين ، يستنشقان اواخر أنسام النهار ، قال عكاشة على حين فجأة :

ـ عمر ، ما قولك فى أننا مسئولان عن هذه الحياة البائسة التى يعيشها اخوتنا ؟

وضحك تلك الضحكة العذبة ، الخجلى قليلا ، المعهودة فيه مع أنها لا تكاد تشبهه . واستدرك يقول :

ـ طبعا ليس ذنبنا أن الناس يحيون هذه الحياة الشقية . ومع ذلك احس دائما ان لنا فى ذلك يدا . لن يستطيع احد أن ينتزع هذه الفكرة من رأسى .

وصمت مرة اخرى ، ثم اضاف بعد بضع خطوات :

ـ اظن اننا نكون مذنبين قليلا اذا لم نفعل شيئا من اجل ان نوضح للناس ما يجب عليهم أن يعملوه حتى يكفلوا لانفسهم حياة افضل .

قال عكاشة هذه الكلمات بنبرة توشك أن تكون نبـــرة مذلة . واضاف :

ـ لك انت أقول هذا الكلام ! ..

فابتسم عمر . كان الليل قد هبط . وهذا ضباب اسود رقيق يتموج فى الهواء ، ويتخلل المنازل والمارة والاشياء ، التى تبتعد عنك كلما اقتربت منها . التفت عكاشة الى عمر وابتسم مثله . ثم قال .

ـ كأن هذه البلاد لا تتوقع من رجالها شيئا .

ودس الحائك يده فى احدى جيوبه ينبشها ، ثم دسها فى جيب اخرى ، ثم سأل صاحبه بمرارة لا تتفق ولهجة المرح التى كانت تشيع فى كلماته .

ـ أليس معك سيجارة تعطينيها ، أليس معك اى شىء أدخنه ، اى شىء ولو كان سما ؟

كان عمر قد اخذ يجرب التدخين منذ مدة خفية ، فهو يشترى سيجارتين أو ثلاثا من صغار البائعين ، وفى جيب سترته الآن واحدة. مد عمر يده الى الجيب الصغيرة ، فسل منها السيجارة فى رفق ،

فتناولها عكاشة ، فأشعلها بعود ثقاب ، وجعل يدخن . ان الظـلام يغيب وجهه الآن ..

قال عمر سائلا فى تعجب :

ـ كيف لا تتوقع هذه البلاد من رجالها شيئا ؟

فحرك عكاشة يده باشارة فى الهواء . وقال :

ـ كأنها لا تتوقع شيئا ...

ثم أضاف بلهجة فيها الحلم كله والاخوة كلها :

ـ ... شيئا عظيما .

ـ لابد ان هناك أسبابا تحملك على هذا الاعتقاد .. لابد ان هناك أسبابا تدفعك الى هذا الكلام ...

فقاطعه الحائك يقول :

ـ أسباب ؟ أتظن أن هذا لا يزال له وجود ؟

فأجابه عمر :

ـ ولماذا تعتقد انه لم يعد له وجود ؟

فالتمعت عينا عكاشة فى الظلام ، ونبع من وجهه الأسود صوت أجش قليلا ، ساخر قليلا ، يقول :

ـ طوفت فى البلاد ، وتحدثت مع كثير من الناس .

ـ فى أى شىء يفكرون ؟

ـ ذلك ما سألتهم عنه . قلت لهم : ماذا تعملون ؟ فيـم تنفقـون أيامكم ؟ فاذا كل ما أجابونى به لا يمكن أن يسمى شرحا ولا بداية شرح

واستأنف عكاشة بعد لحظة :

ـ اليوم انما ينبغى أن يسير المرء فى الطرقات محاولا أن يعرف ما يدور فى أذهانهم .

قال ذلك وهو يرقص رأس سيجارته المتوقد أمام عينيه .

وأضاف متنهدا

ـ انها للذة أن يدخن المرء سيجارة حقيقية : تدخنهـــا فاذا براحة مقدسة تغزو قلبك . وفى وسعك أن تهزها ، وهى كذلك سلاح ، هى نار تشق الفضاء . آه .. ليت لجميع الناس سلاحا حقيقيا .

قال عمر وقد تقلص حلقه قليلا :

ـ لم السلاح ؟

فأجابه الحائك بقوله :

ـ آ ... انها للذة دائما أن يملك المرء سلاحا حقيقيا .

وسحب من سيجارته أنفاسا حانقة ، ثم توقف يشرح بصوت خافت :

— يخطر ببالى أحيانا أنه يكفى أن يملك جميع الناس سلاحا .

انهما يسيران الآن فى الظلام دون أن ينطقا بحرف . والمدينة من حولهما تسترخى ، متهيئة لراحة الليل الكبرى . وقع الاقدام يقرع الارض فى كل مكان ، وما ينفك يتجدد من شارع الى شارع ، فى فتور الليل الساجى . وأطل الشارع الذى كانا يسيران فيه على مقهى ينيره سيل من الضوء ، فهو يبدو من بعيد كأنه يفيض شمسا .

قال عكاشة :

— عم مساء يا أخى .

— عم مساء

- ١٨ -

كان عمر سائرا يتقرقف من البرد فى هذا الفجر القارس ، وقد وضع يديه فى جيبيه . ان الريح تثير تحت خطواته غبارا أشهب ، وتجرف مزقا بالية من جرائد ملطخة ، ونثارات خشب وأوراق أشجار . فلما وصل الى حيث يرى المصنع من بعيد احتار وارتبك . ذلك أنه رأى ماحى بوعنان واقفا يحرس باب المصنع وقد برز كرشه الضخم . أحس الصبى بانزعاج لم يستطع كبحه ، ولعن الرجل . ان عليه أن يمر تحت أنف المعلم ، فكيف السبيل الى تحاشيه ؟ غير ان ماحى بوعنان كان يبدو عليه أنه ينتظره ، لا يحفل بهبات الريح الصقيعية التى تصفع جلبابه المصنوع من وبر الجمل .

فلما صار أمامه سمع أنفاسه التى تخرج من صدره فى عناء . كان المعلم يتنفس تنفسا ثقيلا .

قال يتذمر بصوت جاف :

– هأنت ذا ... الآن تصل ؟ ... ما ينبغى أن يزعج المرء نفسه .

وتنحنح يكشط حلقه المتسخ ، ففاحت فى زفيره رائحة الخمر .

– ولا سيما اذا لم يكن هناك عمل .. احم ... هيا .

وكانت نظرته المترنحة متشبثة بعمر .

– يسرك أنت ألا يكون هناك عمل .

وتمتم يقول بين أسنانه :

– كسلان ، نشال .

انه لا يقوم بأية حركة يحتمى بها من الريح .وكان فى وسط جبينه أثر لطمة يسودها البرد .

– اعترف بالحقيقة ، أليس يسرك ألا يكون هناك عمل ؟

ثم ربت فى لطف على كرشه الذى أخذ يتراقص تحت الجلباب وهو لا يزال منشبا نظراته فى عمر .

– انى أشد منك خبثا ومكرا . فحذار .

كان صوت ماحى بوعنان يعلو ويصفر ، ووجه الصبى يستقبل أنفاسه النتنة . وعبثا تهب الريح على الرجل شديدة عاتية ، فان قرصاتها الباردة لا تحرك فيه ساكنا .

وظل يهز كرشه الضخم بيديه فى غير حياء
أخذ الصبى يفقد هدوءه شيئا بعد شىء . انه يشعر بالخجل والعار أمام هذا الرجل السكران . وأدخل عنقه فى كتفيه .
ـ انا ذاهب الى العمل يا معلم .

قال ذلك وهم أن يغور فى فم الكهف المظلم ، لولا أنه سمع المعلم يصيح به فجأة .
ـ قف . انت الآن مستعجل ، هه . لا ، يا سعادة البك .. ارجع . سوف تتناقش معى قليلا . السنا صديقين ودودين ؟ أليس بيننا صداقة كبيرة ؟
فعاد عمر أدراجه ، وجعد بوعنان وجهه .
كانت أصوات الحائكين الحانقة تتصاعد من الكهف ، وقد علاها جميعا ذلك الصوت القاتل الملتهب المعاند ، صوت حمدوش .
قال عمر للمعلم
ـ سوف يصيبك برد يا معلم .
وفى هذه اللحظة ترنح ماحى بوعنان ، وكاد يهوى على الارض ، لكنه استطاع أن يسترد توازنه فانتصب امام الطفل متكبرا ، ومد عنقه فى جهد . قال متنهدا :
ـ أهذا هو الكلام الذى يسعفك به عقلك ؟
ـ ذلك ... انك اذا أصبت ببرد مرضت .
ـ ما هذا الهراء ؟
ـ اقول انك اذا ...
فمط المعلم شفتيه ، وأرجح راسه على صدره .
ـ لماذا تقول لى هذا ؟
كان ينظر الى عمر من خلال حاجبيه ، بانتباه مفرط هو ذلك الانتباه المعهود فيمن أخذ منه السكر كل مأخذ ، تابع يقول :
ـ لماذا تقول لى هذا ، انا معلمك ؟
خاف الصبى .
ـ هه ؟ لماذا ؟ لماذا تقول لى هذا انا معلمك ؟ لماذا ؟ أانت مشفق على ؟ ولكن من ذا الذى يستطيع ان يؤكد لى أنك لا تخفى شيئا آخر ؟ من ذا الذى يؤكد لى انك لا تتمنى لى الموت مثلا ؟ هه ؟
قال ذلك وهز رأسه .
ـ وهبك مشفقا على ؟ يا للشقاء ! امثلك يشفق على مثلى ؟ ..
وأطلق شتيمة كبيرة ، ثم ألقى على ما حوله نظرة غائمة .

ــ آه . . .

وانقضت عدة ثوان تساءل عمر خلالها عما عسى أن يحدث .

وفجأة قال بوعنان مقرعا :

ــ ماذا يصل أسبابك بأسبابى حتى تشفق على وترثى لحالى ؟

وأنشب يده فى عنق الصبى .

ــ اذهب . . . واعلم أنه ليس على هذه الارض الا أوغاد . . ليس فى وسع طرح من نوعك ان يبرهن لى على خلاف ذلك ؟ الآنت تشفق ، أنت ؟ ما أنت الا وغد .

وردد بحار قائلا

ــ وغد .

وأخذ المطر ينزل رذاذا رقيقا . وهدأت الريح قليلا ، فهى تنوح الآن نواحا ضعيفا . وماحى بوعنان ساكن لا يتحرك كأنه كتلة من حجارة . ان بريقا أخضر قد اشتعل فى عينيه الدهنيتين . وانتفض فجأة يقول :

ــ اذهب . . ما وقوفك هنا ؟

فاندفع عمر يغور فى المدخل المظلم ، ويهبط درجات السلم الاثنتى عشرة دون أن يراها . ومضى الى مكبه متعثرا .

اختفى المعلم . انه لم يجىء الى الورشة فى مثل هذه الساعة المبكرة من الفجر ، يدفعه ما يدفع السكير الى مثل ذلك ، الا وهو خارج من ليلة قصفه .

- ١٩ -

ـ فى الليلة الماضية سكروا سكرة كبرى . وفى الليلة التى قبلها أيضا . وانتهت السكرتان كلتاهما بالضرب . واستمر الضرب فى هذه الليلة أيضا .. ثلاث ليال متتالية . . يا للانسان البغيض ! لم يكن قد أفاق من سكره تماما حين كان هنا منذ قليل .

ونظر مصطفى رزاق الى الحائكين واحدا بعد واحد ، وفتح فمه فتثاءب ثم تنهد يقول حاسدا :

ـ ياله من رجل ، معلمنا هذا ، هه ؟ .. قال شول :

ـ نعم . هل تجدون فى المدينة كلها رجلا مثله ؟ أليس على حق ؟ أن ماله هو ملكه يفعل به ما يشاء ، ولا يدعه يعفن فى خزانة من حديد

وكان شول يرتدى صديرة يلبسها فوق القميص ، وبنطلونا يتموج بلاحزام . ان فكرة تبديد المال فى القصف واللهو قد أثارت حماسته . قال :

ـ يكسبه الآن وينفقه بعد لحظة . المال يسيل من بين أصابعه . انه لجدير حقا باسم الماجن . لو عملنا ليل نهار من أجل أن نهيىء له من الدراهم ما لم ير أحد منا مثله فى حياته كلها ، لعرف كيف يبدده على الفور . انه لرجل .. قال قوطى الامين منتقدا بقوة :

ـ يعرف كيف ينفق فى الاثم ، أما بعد ذلك ، فيا ويلنا ! .. انه يماطل فى الدفع أسبوعا بعد أسبوع ، ثم لا ينقدنا قسطا من أجورنا الا فى أيام الاعياد . لكنه يأمر بأن نحيك له أربعين بساطا فى اليوم ، أى ما يساوى مائة وستين كيلو جراما من الصوف .

ـ انه لسبيل لعابكم أيها الصالحون الأتقياء . حاولوا أن تفعلوا مثله . ولماذا لا تجرءون على أن تقولوا له شيئا حين يكون هنا ؟

قال شول ذلك ، وهو يرشق معارضه بنظرات متقدة حانقة .

ـ انه يعرف كيف يلهو ، اما أنتم ، فمن ذا الذى يستطيع أن يقول لماذا تعيشون ؟

لم يجب قوطى الامين لا بنعم ولا بلا ، وانما التقى حاجباه عنـــد

منبت الانف فى ثنيتين ، ثم مال على نوله ، واتجه بانتباهه كله الى خيط اللحمة يدسه فى المكوك

وارتسمت على الوجه النحيل ، وجه شول ، ابتسامة ظفر خبيث .

قال عكاشة :

ــ من يسمعك يحسبك فخورا ... كأنك انت من يدور عليه الكلام

ــ كيف ؟ أليس هناك ما يدعو الى الفخر ؟ اما انا فأؤكد ان هناك ما يدعو الى الفخر كل الفخر . هذا رجل لم يكن يملك قرشا واحدا . أصحيح أم لا ؟ كان عاملا يعمل بأجر ، مثلى ومثلك ، كان شخصا لا يساوى بصقة . ثم ماذا أصبح ؟ أصبح كبار تجار المدينة أصدقاءه ، وأصبح وجهاءالفرنسيين يحترمونه ، وأصبح أحد مفتشى الشرطة رفيقا من رفاقه . حاول أن تمكر به يضعك فى السجن فى مثل لمح البصر . وهو مع ذلك لايعرف القرأءة ولا الكتابة ، مثلى ومثلك .

كان شول يقول هذا الكلام فى حماسة ما تنفك تزداد ، وصراخ ما ينفك يقوى .

ــ أتقول انه سرق ، وربما قتل ؟ انه ليتفق كثيرا أن يقال عن فلان أو فلان من الناس ، من قبيل الحسد ، انه سرق أو قتل أو دس سما ، مع أن الامر لا يعدو ان يكون قد نجح . نحن اناس لا نحب ان يواتى الحظ أحدا . حتى اخوتنا فى الشقاء لا يطيقون أن يروا أحدا منهم يخرج من حال البؤس التى هو فيها .

وأمسك فجأة عن الكلام ، والقى نظرات حاقدة سقطت على الصبية المكبين ، فانفجر يصيح بهم حانقا :

ــ كان ينبغى أن تفرغوا منذ ساعة يا أولاد النحس

قال عكاشة :

ــ هو المال الحرام يذهب كما أتى .

فضحك عثمان الاحمرضحكاقويا ،ثم نادىيقول فىالصمت الشامل:

ــ الموت . آ ... الموت . كل شىء صائر اليه ...

فانقبض صدر عمر .

وفىآخر الكهف، أخذيغنى صوتمرهقمكدود ،يكاديكونصوتامرأة:

لم يبق لى فى حياتى سعادة أرتجيها

وانهمك العمال فى عملهم بحماسة آلية .

ولت حياتى ضياعا ... يا موت هيا الى

وتنهد أحد الحائكين ينادى :

ــ يارب .

— ٢٠ —

كانا يسيران فى عبق الربيع ٠ عكاشة يتكلم ، وخطاه تبطؤ فى بعض الاحيان . وكأنما لاحظ فجأة ما يحيط به ، فاذا هو يتوقف عن السير توقفا تاما فيرفع انفه ، ويلبث عدة لحظات ينشق ويتنسم الهـــواء الجديد ، فى نشوة غريبة عذبة محرقة ٠ قال :

ــ الشعب ملكوت الله ... الشعب روح العالم . ما من احد علم الشعب ، ومع ذلك يحمل الشعب الحقيقة فى ضميره ، وينشرها بكلتا يديه فى سخاء ...

ونظر عكاشة الى عمر بطرف عينه، كأنما هو يفضى اليه بسر، قال:

ــ منذ مدة طويلة ذهبت أطوف فى الطرقات ، أيها الصغير .. فرأيت الشعب ، وعرفت الشعب . وأصبحت منذ ذلك الحين لا أستطيع ان أعتاد الحياة الساكنة ٠ ظننت فى اول الامر اننى سأستطيع ذلك ، وتجلدت وكابرت وجربت صوراً شتى من الحياة ، فلم يجدنى ذلك كله

قال ذلك وصوته يزداد بحة ، ثم أضاف :

ــ وأنا اليوم مضطر الى الاعتراف بأننى أصبحت لا أطيق الحياة الساكنة ٠ لا أدرى ما الذى يحدث لى ، لا ادرى هل يجب على أن أبقى هنا ... لا أدرى ..

وكان هبوط الليل يقترب٠ وكانت تجرى فى السماء غمامات لاتزال مذهبة . وكانت الحركة التى تستبد بالناس عند الغسق قائمة قاعدة

ــ كل شئ فى المدينة بارد سيىء ٠ البائع فى المدينة ملك ٠ويل لمن يريد فى المدينة ان يثور على جنس التجار . ان المدينة هى العـــالم الذى يعيش بغير أمل ٠

كان عمر ينظر اليه خلسة وقد انقبض قلبه ٠ فمال عكاشة عليه وهمس فى جوف أذنه :

ــ عاشت الحرية أيها السيد ٠ ينبغى أن نمضى باحثين عنها فى الطرق ٠ الناس هنالك يكرمون اخوتهم ٠

تفرس الصبى فى وجهه تفرسا قويا ٠

ــ لك أنت أقول هذا الكلام ، أيها الطفل ٠

وظلا يتجولان الى أن التبس الظلام ، فافترقا ٠ ذهب عكاشة الى مقهاه المألوف ، وعاد عمر الى بيته ٠

– دع الشعب • فيم تتكلم دائما عن الشعب ؟ دع الشعب يتألم •
قال حمدوش هذه الكلمات وهو يمط شفتيه كطفل حاقد •
– دعه فى فاقته • أهو يتألم ؟ ولكن ما الذى تستطيع أن تفعله له ؟
ولم يجب عكاشة ، فاستأنف الاحمر يقول :
– دع الشعب ، وليعش كل واحد على نحو ما يريد •• على نحو ما يحب • الرجل الذى سيخرجنا من الحال التى نحن فيها ، لم يخلق بعد •

ثم أغمض جفنيه نصف اغماض ، وراح يهتز ذات اليمين وذات الشمال كما يفعل مرتلو القرآن • ان عمر لم يشعر فى يوم من الايام بأنه قريب من هذا الشخص المحير ، كما يشعر بذلك فى هذه اللحظة• كلماته المرة ، نبرته التى تدل على العذاب ، كل هذا ••

قال عكاشة :
– جميع الناس يتكلمون كما تتكلم •
– كما أتكلم ؟ من الذى يتكلم كما أتكلم ؟
– جمع لا يحصى عدده •
وألح الاحمر يسأل :
– ولكن من ؟ من ؟
– أناس حمقى •

فجحظت عينا حمدوش ، وعوى كما يعوى ابن آوى ، وانتصب واقفا بوثبة واحدة • ان ذؤابته الحمراء المتقاتلة تلتمع كأنها مشعل • وكان لابد من أربع سواعد قوية ، هى سواعد حمزة وحسين ، من أجل أن يمكن الامساك بهذا الانسان الذى ركبته الجن ، ومن أجل رده الى القعود حيث كان •

وأراد حمزة أن يصلح بين المتخاصمين ، فقال :
– لا أحد بيننا شرير اذا ما أخذ على حدة (كان صوته الضخم يجرى بالكلام كالغناء) • واذا اتفق أن رأينا أحدنا شريرا ، فانما يكون ذلك على غير ارادة منه ، اذ لا يستطيع أحـــد أن يسيطر على مصيره • الانسان الذى لا سلطة له على القوى التى تسحقه ، لا سلطان

له على نفسه · ولكن اذا جاء اليوم الذى يحطم فيه كل شى ، تبدل الامر ···

كان الحائكون يسمعون هذا الكلام ، فلا يؤيدون ولا يشجبون . وقد ساق حمزة أقواله ، بذلك الصوت الاسيان ، بتلك النبرة المشفقة التى لا يعرفها أحد فى غيره ·

وتابع يقول :

– على أن فى الدنيا قلة من الناس جبلت على الشر ·· فهؤلاء ·· سيلقون جزاءهم عاجلا أو آجلا ·

تقلص وجه عكاشة ، وكز فكيه · فلما رأى حمزة هذا التعبير الذى ظهر فى وجه زميله ، ابتسم من خلال كشمش لحيته الشهباء ابتسامة تدل على كثير من سلامة القلب ·

وكان العمال الآخرون يأكلون وهم يتابعون الكلام بوجوه موصدة لا سبيل الى النفاذ اليها · كانوا كأنهم يستنكرون فى قرارة نفوسهم هذا الاضطراب كله · لقد امتلأت رءوسهم بأحلام غامضة ، فهم يتأملون هؤلاء المترثرين دون أن يظهر عليهم أى اهتمام بهذه الاحاديث الطويلة ، كما لا يظهر فيهم أنهم يرون هذه الجدران المحيطة بهم ، ولا هذه الانوال المتعبة ، ولا ذلك الظل الثقيل الباعث على الغثيان الذى يثقل على أكتافهم ·

قال الاحمر معقبا ، ولا يزال شعاع من جنون يسكن نظرته :

– نحن لا نصنع لا خيرا ولا شرا ، وانما نحن قابعون نستنقع بين الاثنين فى غير جدوى ·

وقال حسين طرف ، الملقب بالقنفذ ، قال يسأل عكاشة :

– قل لى : اذا أراد أحد ان يسافر الى فرنسا سيرا على قدميه ، هل يستطيع ذلك ؟

فأجاب المسئول :

– لا ·· فالذى أعرفه هو ان عليه أن يعبر البحر ، والبحر ، كما تعلم ، لا يمكن عبوره سيرا على الاقدام ·

فلم يضف حسين طرف شيئا ، وانما غاص فى الافكار التى ايقظها فى نفسه جواب عكاشة · انه يحاول ان يعرف هل أجابه رفيقه صادقا أو هو كذب عليه وسخر منه · ان هذا الرجل الاعجز يشبه منظره منظر شجرة تالفة · كل ما فيه أسود : الزغب والجلد والنظرة · أما شعر رأسه الذى يحتل جزءا من جبينه العنيد ، فانه منتصب انتصاب أشواك مهددة ·

وكان حمدوش الذى لا يزال حانقا كل الحنق من مشاجرته مع عكاشة يعذب الارض بطرف قطعة من الخشب فى غضب شديد ٠

قال يدمدم :

ـ لا أحد يعلم شيئا ٠٠ وأنت تنزل نفسك منزلة عراف لا يجهل شاردة ولا واردة ٠

فأجابه عكاشة وهو يشير برأسه الى عمر :

ـ اسأل الصبى يجبك ٠ لقد تعلم ، هو ، فى المدرسة ٠

فقال عمر :

ـ نعم ، يجب عبور البحر ٠

فقال حمدوش ثائرا :

ـ لشد ما تضجرنى صحبتكم !

– ١ –

– لقد تجبرتم حتى أصبحتم لا تؤمنون بالله ، ولكن كيف يمكن ان يثق المرء بكم بعد الذى سمعه من أقاويلكم وبعد الذى رآه من سلوككم ؟ على أنكم ما ينبغى أن تؤاخذوا ، فلست أظن انكم تتحدثون حديث الجد أبدا ٠

قال قوطى الامين هذه الكلمات وتأوه ، ثم زم شفتيه زما قويا ، وأخذ يفكر ، وأغمض جفنيه ٠

– لست أدرى ما هذه الفكرة المجنونة التى تستبد بالناس ، انهم يسرفون فى الحديث والاستماع ، ويبحثون ثم يبحثون ثم ما ينفكون يوغلون فى البحث فى هذا الظلام الذى يلفهم ٠ ولا شك أن هذا هو ما ينشأ عنه الاثم ٠

ان نبرة من عذاب قد تسللت الى صوته ، حتى ليحس المرء أنه مستعد لان يغفر للناس رغم أنه ما كان له أن يفعل ذلك منشرح الصدر ٠

واستأنف يقول بصوت خافت :

– ماذا يريدون ؟

فنظر اليه حمزة خلسة وهو يتقدم بحاجبيه الى أمام :

– يريدون أن يطعموا من جوع ، وأن يعاملوا خيرا مما تعامل البهائم ٠

فنهض قوطى الامين ، وابتعد عن الجميع دون أن ينبس بكلمة ، ومضى يقعد بعيدا فى ركن من الاركان ٠

لكنه قال من مكانه سائلا :

– لماذا لا تكفون عن الشكوى ما دمتم ، أنتم أنفسكم ، لا تعملون شيئا من أجل أن تتبدل حياتكم ، وما دمتم لا تحترمون الانسان الذى فيكم ؟ ان الشكوى يمكن أن تكون منكم أيضا ٠

قال حمزة :

– صحيح ٠

– اذن لماذا لا تعمل شيئا ؟

ـ اذا كان الامر أمرى ، فأنا أيها الاخ مستعد لان أفعل كل ما يطلب الى فعله ٠

قال حمزة ذلك وباعد ذراعيه وهو يضيف :

ـ ولكن ما عساى أصنع وحدى ؟

ـ المرء يحاول ٠

فهز حمزة رأسه ليقول لا ، ثم أضاف يشرح بلهجة متأنية :

ـ لا أحد منا قادر وحده على أن يبدل الواقع ٠٠

ـ بل قل لا أحد قادر على أن يعارض قدره ٠

هكذا هتف يقول عباس صباغ الذى كان جلس الى نوله ، وقـد أظلم وجهه ٠

وحاول حمزة أن يناقش ، ولكن محاولاته ذهبت سـدى ٠ كان واضحا أن الحائكين الآخرين لا يكاد يختلف تفكيرهم عن ذلك ، حتى لكأن تصور حياة أقل شقاء يؤذيهم مثلما تؤذيهم اهانة ٠

وحين جلس قوطى الامين الى نوله بعد لحظة قال بكلمات سريعة قصيرة وهو يحرك يديه :

ـ نصيبك لابد أن تناله ٠ افهم جيدا ما أعنيه : أنت قد تكدح كالثور ، وقد تكون أذكى الناس وأمهرهم ولكنك لن تأخذ الانصيبك٠ كن غشاشا أو سراقا أو مكارا ، فلن تنال الا نصيبك ٠

قال ذلك ومال على احدى ساقيه ثم مال على الاخرى ، وصمت ٠ ان يديه الشعراوين تمسك يسراهما بخيط الصوف ، وتمسك يمناهما بالمكوك ٠ لم يدرك انه ناقض نفسه بنفسه ٠ على أن ذلك أمر شائع فى الكهف لا يهتم به أحد ٠

ـ فما هو السلوك الذى يجب أن نلتزمه فى الحياة ؟ لقد قيل : « من تقدم الى الله عاريا كساه » ٠ ونحن أناس لا نريد الا ثيابا مستعارة ، وكذلك جميع الناس ، يستوى فى ذلك الظالم والعادل ٠ نحن جميعا عراة على أبشع صورة من العرى ٠ كلنا عرضة للانظار بشكل مخيف ٠٠ والثياب الغريبة التى نظن أننا متدثرون بها لا وجود لها الا فى خيالنا ٠

خفض العمال الآخرون أنوفهم ، وكان واضحا أنهم قد تأثروا بهذا الكلام ٠ كان قوطى الامين يتحدث على مهل بصوت قـوى ٠ وكان حمدوش وحده ينظر اليه فى وقاحة ٠ فلما لاحظ الحائك العجوز ذلك، أمسك عن الكلام ، فاذا بالاحمر يخرج من فمه صوتا ماجنا ٠

ـ رجل بغير حياء ٠

قال الامين ذلك ولعنه ، ثم أضاف :
- حين ستوسد قبرك أيها الزنديق ..
فقاطعه حمدوش يقول وهو يغمز بعينه :
- لسوف نموت جميعا ، فلا حاجة حقا الى هذه الترهات كلها . ولكن يخيل الى أن ذهنك مشـوش بها كثيرا .. أتراك غير مرتاح الضمير ؟ ..
فزاغت نظرة الامين ، وقال :
- سيقتص لى الله منك أيها الشيطان .
ثم قال بلهجة غريبة ، هى لهجة من يأمر الآخرين ويبتهل اليهم فى الوقت نفسه ، أن يصدقوه :
- الناس عازفون عن الحياة الصادقة الخالصة التي ترضى الله . ولكنك ان حضضتهم على أن يعيشوا على نحو آخر كنت تشـوش نفوسهم . انى أؤكد ذلك .
فصاح حمدوش يقول :
- ببغاء .
فاغبر وجه الامين ، وأظلمت عيناه القاسيتان الكابيتان . ولم يجب على الاهانة . وكان يهم ان يتابع حديثه ، فاذا بالاحمر يصرخ ، وكان يراقبه :
- انه مجنون .. مجنون تماما .. عليكم بالمجنون .
فقال قوطى الامين عندئذ بصوت أبيض :
- عقابك عند الله .
وكان عثمان الملقب بالموت ، يذرع الممر المتوسط بخطا مختالة ، فاذا هو يدور في مكانه ، فيغير اتجاهه ، ويستأنف بخترته ، ثم يصعد درجات السلم في بطء ، حتى اذا صار عند الباب ، نظر الى قاع المصنع ، ونادى يقول بصوت عريض :
- أنا الملك .
فالتفت جميع من بالمصنع اليه فرأوه مادا ذراعه يشير باصبعه الى الصبى الجديد ثم يقول :
- جزاؤه أن يضرب بالعصا على أسفل قدميه مائة مرة دون توقف .
فرشقه الصبى بنظرات حانقة . ورفع باصقالى وجهه الابيض المبهم من فوق دولابه ، يصغى الى الحديث .
قال عثمان منذرا فى عظمة :
- استعد ، فسوف تنال جزاءك .

حاول عمر أن ينظر الى مكان آخر حتى لا ينفجر مقهقها ، وقامت في المصنع عندئذ صيحات وشتائم وقهقهات ، واختلط الحابل بالنابل. ان جميع الحائكين قد تركوا عملهم، فبعضهم ممسك بأضلاعه، وبعضهم يئن .

قال عثمان وهو يصطنع هيئة القسوة :

ـ ماذا ؟ أين الغرابة ؟ ألست ملكا على نفسي ؟

فما سمع العمال ذلك ، حتى هبت في المصنع عاصفة من الضحك أعتى من الاولى .

وكان جلول حداد أول من استطاع أن يتكلم ، وهو يمسح دموعه :

ـ لقد أحسنت الكلام .. أنت أحكمنا جميعا .

قال عثمان :

ـ سكوت .. الموت وصل ..

فصاح به أحدهم :

ـ ألا انك لطير شؤم .

فأجابه عثمان بقوله :

ـ لن تعيش مدة طويلة .

وفي هذه اللحظة دخل المعلم الى الكهف على حين فجأة . فسرعان ما خيم الصمت .

سأل ماحي بوعنان :

ـ ماذا هناك ؟ هل اقتتلتم ؟ لكأن في مصنعي وحوشا .

هبط عثمان درجات السلم في وقار ، دون أن ينبس بكلمة ، فرشقه المعلم بنظرة ساخرة وهو يقول :

ـ آه .

فلما رأى عثمان الملقب بالموت أن المعلم يخصه بانتباهه قال يسأل في رصانة :

ـ فماذا نعمل ؟

فأجابه ماحي بوعنان قائلا :

ـ نستدعي رجال الشرطة .

فدمدم باصقالي يقول في ركنه المظلم :

ـ يا ليت يارب .

واصطنع عثمان هيئة النادم التائب وعاد الى نوله .

وهدأ اهتياج الحائكين شيئا بعد شيء . وفيما كان المصنع يستأنف العمل ، استرد الجو ما يشيع فيه من حزن وتسليم . لا يألف المرء بمثل هذه السهولة أن يضحك .

– ٢ –

ذهب عمر الى المقهى يلحق بعكاشة ، على عادته فى كل يوم من أيام الاحد . كانت الساعة في نحو العاشرة من الصباح . ان رقائقا من السحاب تمتد فوق المدينة . وأوراق الاشجار التى تنبجس من بينها البيوت العالية ، تلفها غلالة من أنسام شهباء شفافة ، تجمل فيها المآذن وأشجار السرو . والشمس تظهر من حين الى حين ، فاذا بخار مضىء يحف بكل شىء من الاشياء على صورة هالة . انه نهار مرهف طيب .

الناس والعربات والبهائم تمضى فى تيارات شتى . جلاليب خشنة تحاذى قمصان بقالين . باعة ذوو لحى مصففة يسيرون بخطوات صغيرة وهم يرجحون أذرعهم . المقاهى طافحة الى الشارع .

وهذه هى المدينة الواطئة . ان جمهور الناس يجرى هنا قاتما كالقطران . ودخل عمر المقهى ، فوجد عكاشة جالسا وحده فى ركنه الاثير . قال له وهو يصل اليه مباغتة :

– الله أعلم فيم تفكر .

فمر عكاشة بيديه على وجهه فى بطء .

وأردف عمر يقول :

– منظرك اليوم غريب كل الغرابة . أتراك قد وقع لك شىء ؟

فرنا اليه عكاشة . ان فى عينيه من الضجر ما ارتبك له عمر .

وقال عكاشة معترفا :

– لقد استبد بى الامر فى هذا اليوم دفعة واحدة . وأسند رأسه الى يده :

– آن لى أن أذهب . لا أطيق بعد الآن بقاء .

فخطر ببال عمر ان امورا كثيرة ستسهل يوم يسافر عكاشة . لقد اكتشف الصبى أن هذا الحائك لم يخلق للتحدى والمشاجرة . وآلمه أن يرى هذه القوة مذلة مغلوبة على أمرها .

– أترانا بلغنا هذا المبلغ كله من غربة بعضنا عن بعض ؟

فلم يفهم عمر ماقاله عكاشة .

وردد عكاشة يسأل :

ـ مارأيك ، هه ؟
ـ ماتقوله صحيح .
ـ هل أقول فى بعض الاحيان ماليس بصحيح ؟
واظلمت عينا عكاشة . كان عمر دهشا . واضاف عكاشة يقول بصوت ران عليه الحزن :
ـ ليس الامر أمر تلفيقات .
ثم أردف يقول وقد أضاء وجهه فى هذه اللحظة بابتسامة طيبة :
ـ لا ، ماكان للناس أن يصيروا الى ماصاروا اليه لولا انهم أوذوا اذى كبيرا .
ثم مال على عمر ، وهمس يقول :
ـ لقد اهين شعبنا كثيرا ... وسيخرج من ذلك أمر رهيب هائل
وخيم الصمت على دكان الشواء . وانقضت لحظة طويلة . ثم عاد عكاشة الى فكرته كما يعود المريض الى الجرح الذى يؤلمه .
ـ لم اعد أطيق البقاء .
وتنهد ، ثم التفت نصف التفاتة الى عمر ، وعاد يؤكد مرة أخرى :
ـ لم أعد اطيق البقاء
ورجع الى النقطة التى تركها من سلسلة تفكيره ، فأكمل يقول :
ـ لقد أصبح شعبنا شديد الاحساس ، شديد الاحساس بالامه ، بالاهانات التى تحملها فى الحاضر والماضى ... أصبح شديد الاحساس الى حد يصعب ادراكه .
شعر الفتى مرة أخرى بثقل الجدران وكثافة الضوء المنخول ، وركود الاشياء .
ـ واصبح شعبنا أيضا شديد الاحساس بكرم النفس وكلمات المودة . لاشك أن هذا كله كان موجودا فى الماضى . ولكن قلب شعبنا يخفق اليوم كما لم يخفق فى أى يوم مضى . فما الذى سيخرج من ذلك ؟ أرجو أن يخرج منه بخير ...

قال الاحمر لعكاشة بلهجة كان يعتقد انها لاشك مفحمة :

- اراك تتحدث دائما عنا ، فهلا عرفت على الاقل ماقيمتنا ؟ هل تعلم ما الذى نقدر على فعله ، وما يمكن أن نقترفه من شرور ؟

قال ذلك وهو يلح على هذه الكلمات الاخيرة بنظـرة مراوغة . فأجابه عكاشة :

- نحن كسائر بنى البشر ، قيمتنا كقيمة غيرنا من الناس سواء بسواء .

ثم أضاف بعد لحظة من تفكير :

- لسنا شرا من غيرنا ، ولا خيرا من غيرنا ... كل ما فى الامر اننا أشقى من غيرنا قليلا .

- كذبت . ان شيطانا يختفى فى نفس كل منا . يبدو علينا اننا كسائر الناس ، لكننا لسنا كسائر الناس . ونحن جميعا نرفض أن نسلم بذلك . اننا نتكلم ونعيش ونعمل خافضى الرءوس ، ولكننـا لاننتظر الا سنوح الفرصة المواتية لنقارف مانسـتطيع أن نقارفه من شر .

قال حمدوش ذلك وفى ارتعاش صوته حدة لاتبشر بخير ، واضاف :

- اننا لانتورع عن شيء ...

- فى رايك اذن انه ليس فى بلادنا الا اناس خطرون . اناس ينبغى أن يقيدوا بالسلاسل .

- أنا من هذا على يقين .

فضحك عكاشة ضحكة قصيرة . وقال :

- سيتبدل الامر .

- أنت وحفنة من امثالك الحالمين وحدكم تؤمنون بذلك . لا ، لا، ما من احد ينطلى عليه كلامكم منذ اخذتم ترددونه .

وكان حمدوش لايستطيع أن يستقر فى مكانه ولا أن يكبح جماح عصبيته . قال :

- هلا تفضلت فذكرت لى كيف سيتبدل الحال ؟

- ما من أحد يستطيع أن يتنبأ كيف ستجرى الامور على وجه الدقة .

فصمت حمدوش لحظة ، ثم صاح يقول على حين فجأة :

ــ لا ، لست أوافق .

قال هذا ومر بلسانه على شفتيه بسرعة ، ثم حرك يده فى الهواء كأنما هو قد غص بكلمة .

ــ جميع الذين أراهم يبددون جهودهم ويرهقون انفسهم فى الكلام الطيب ، لايزيدون على أن يبصقوا فى الهواء . انهم يخدعون انفسهم ويخدعوننا . ولكن كلامهم لن يحرك أصغر حصاة من حصى الطريق ، فان زعموا غير ذلك فهم كاذبون .

وطرف بعينه ساخرا .

ــ مانحن فى حاجة اليه ، يا أخى ، انما هو نوع آخر من الرجال .

ودلك صدره فى بطء وارتياح .

ــ أنظر اليهم فى الشارع ، أخوتك هؤلاء . ما الذى تنتظره من هذا الجيش من الاشباح الساغبة ؟

نزع عكاشة الوتد الذى يبقى من تحت النسيج على تباعد الحاشيتين ، وانتصب وهو يقول :

ــ لابد للمرء من كثير من قوة النفس حتى يقبل هذه الحياة على أنها خير ، وحتى ينسى الآلام التى تجثم على صدورنا .

فاعترض حمدوش صائحا :

ــ أنت انسان يحيا على حلم .

وحين صاح بذلك كان كمن يريد أن يخرج محدثه من سبات عميق . فابتسم عكاشة . حتى اذا ادار اسطوانة النول مع مساعده حسين طرف وأعاد غرس الوتد فى مكانه ، أشعل عود ثقاب وقربه شعلته الصغيرة المتموجة من عقب السيجارة الذى كان قابضا عليه بشفتيه ، وهو يحنى رأسه الى جانب . أجاب :

ــ نحن فى حاجة الى هذا الحلم .

ــ لسنا فى حاجة اليه أبدا . وانما نحن فى حاجة الى الحقيقة ، الى الحقيقة عارية كل العرى .

وقبض حمدوش يديه ، ورفع ذراعيه الى السماء وأخذ يحركهما فى الهواء ، ثم ضرب نوله وهو يقول معترضا بصوت مختنق :

ــ هذا كله ليس له فى رأيى أية قيمة .

وعندئذ أخذ شول يغنى بصوت عال :

الليل جاء فأين نقضى الليل ؟

الليل جاء فأين نقضى الليل ؟

- ٤ -

أصابعه تبحث عن سجارة فهى تنبش العلبة مرتعشـــه محمومة فتمزقها . ودمدم يقول :

ـ انتهى ، انتهى ، قررت ، قررت . ســأذهب . سأمضى الى بعيد ، الى بعيد ، حيث لايعرف أحد من أنا .

فهتف عمر يقول :

ـ لماذا ؟ ماذا تأمل أن تجد ؟

ـ ماذا ... ماذا آمل ان اجد ؟

وأخذ عكاشة يفكر :

ـ الا تفهم ها .. ها .. قل : اتريد أن تجىء معى ، أم أنت لا تريد ؟

ـ لا اريد .

لم يجب عكاشة بشىء . لم يدهشه هذا الرفض . كان يتوقعه ولعله كان يتمناه .

ثم استأنف يقول بلهجة تشبه أن تكون لهجة دعاء :

ـ لم أعد اطيق البقاء . كفانى مالقيت !

ان عياء لا سبيل الى وصفه كان يترقرق فى كلماته هذه . وصفق بيديه وأمر بقدحين آخرين من الشاى .

ـ لنشرب معا مرة أخرى . وابتسم . وابتسم عمر أيضا .

قال عكاشة :

ـ هناك شىء لا أفهمه ، هو ان مفارقتك ستؤلمنى .

ونظر الى الصبى فى انتباه .

ـ حقا .. ستؤلمنى مفارقتك .

وجاء الساقى ، فوضـــع قدحين من الشـــاى الساخن ، ورفـــع القدحين الخاليين . فما ان ادار ظهره ، حتى تابع عكاشة يقول :

ـ الحياة هنا رمل ، يملأ المرء يديه فلا يقبض على شىء .

ورشف رشفة من الشاى ، ثم رشف رشفة أخرى ، وهو خافض رأسه ، لكنه يرقب عمر من فوق حافة القدح .

ـ ربما كان هذا السفر آخر حظ لى .

واضاف بصوت اخفت :
ـ وقد لايحقق لى هذا السفر السعادة ، غير أننى سأشعر اذا سافرت بأننى أقل تناقضا مع نفسى .
وابتسم ابتسامة صامتة ، متقلصة بعض التقلص .
ـ نفس حزينة ، حزينة وقلقة ، قلقة قلقا رهيبا .
وعاد الصمت يخيم بين الرفيقين .
وابتسم عكاشة بعد لحظة ابتسامة وانية ، وقال :
ـ سوف انتهى الى احتقار جميع من حولى اذا انا لم ..
وحرك ذراعه باشارة فى الهواء كأنما هو يطرد اشباحا أمامه .

***

كانت امسية الصيف تنشر جوا ورديا اشهب . وقد اشتعلت واجهات المخازن . غير أن الليل لايزال بعيدا . ان الشوارع تزدحم بكسل كبير .

ظل عمر يطوف على غير هدى ، فارغ الراس . انه ليس بالحزين ، ولكنه ممزق القلب . كان يسير فى حذر . لقد ودع عكاشة منذ قليل .

ووصل طوافه الى السور الذى يطل على السهل . اخذ يتأمل الحقول والطرق والاخاديد ، اخذ يتأمل هذا المنظر الذى يحيط به الظلام . كانت الارض تفور فى العتمة فى رفق وهدوء . تنسم تلك الرائحة اللانهائية القوية ، رائحة الريف . ثم مالبث أن اصبح المنظر الذى امامه عالما اجرد ساكنا : لقد هبط الليل . ان طمأنينة آتية من الاعماق تملأ قلب عمر .

وعاد الى الجمهور الذى تعج به الشوارع . انه يحس بحاجة الى ان يحيط به وان يحمله تيار هؤلاء الناس الذين لايعرفهم كثيرا ، ولكن وجودهم ينعشه .

هذه مصابيح غاز وكهرباء قد علقها باعة الفاكهة كالاكاليل على طول الارصفة ، فهى تضىء سلالا تنساب فيها الوان قوية مشهية .

المدينة من الصيف فى سكر . غير أن السطوع القوى والدفء المتلالىء اللذين كانا فى النهار ، قد أعقبتهما فى الليل أنسام طرية .

وكانت نداءات باعة « الدندرمة » أبرز كل ما فى ذلك الغسق من حركة ونشاط . واخذت أولى النجوم تظهر فى السماء . خيل الى عمر ان هذه الوجوه التى تلفها الظلال تعكس ما بنفسه من حماسة . ان هؤلاء الناس يشبهونه . انهم ، هم ايضا ، ينتظرون يقينا لايتصوره خيالهم بعد أن قضوا اياما وأياما بغير أمل .

— ٥ —

ـ يجب تبسيط الامور ، ينبغى لجميع الفروق بين البشر أن تزول ، والذين يعارضون هذا يجب سحقهم . نعم ، لا فروق .

قال حمدوش ذلك بصوت يفرقع كالسوط . فدمدم عباس صباغ . ان عباس صباغ لايريد حتما أن يخوض فى مناقشة مع انسان مهتاج كحمدوش . ومع ذلك قال يدافع عن نفسه كانه هو المتهم :

ـ طيب .. هذا رايى أنا أيضا .

كذبت . انت تعبد كل قديم . ولست اول من أراه كذلك . انكم جميعا سواء .

قال عباس :

ـ اذن لاتحاول أنت ايضا أن تجعل لنفسك ميزة .

ـ كل من يريد أن يجعل لنفسه ميزة يجب أن يباد .

تحرك عباس تحرك من ضاق ذرعا ، ولكنه لم يجب .

وكان الحائكون يعملون فى همة ونشاط ، فلا هم يسلمون ولا هم يعارضون . وكان بعضهم يتوقفون عن العمل فى بعض اللحظات ، فيسخرون بالمتبجح ثم يستأنفون عملهم

قال عباس أخيرا :

ـ ان الله هو الذى أمرنا أن نعيش على هذا النحو ..

فحدجه حمدوش بنظرة غريبة . ثم قال له :

ـ هب الله هو الذى أمر بهذا . أفأنتم تفعلون كل ما أمر به الله ؟

ومرة اخرى أصم عباس صباغ اذنيه . وكان عمر يصغى الى هذا الكلام كله مشدوها . كان يخيل اليه ان هذا الذى يتكلم ليس حمدوش

وأخيرا قال شول سائلا :

ـ وفيم تلقى علينا هذا الهذر كله ؟

ـ من أجل أن تفهموا .

ـ من اجل أن نفهم ؟

وهز شول كتفيه .

ـ كان البشر دائما يصطرعون ويلتهم بعضهم بعضا .

قال ذلك ثم اضاف :

ــ فانما مرد الشر كله الى حماقتهم . افهم هذا أخيرا .

صمت حمدوش .

وحين آن وقت الخروج من الورشة ، سأل عمر :

ــ لماذا كنت حادا تلك الحدة كلها ؟

فمط حمدوش شفتيه ، ولم يجبه . ثم قال :

ــ ياله من سجن ! هيا بنا نخرج من هذا السجن .

وخرجا من الكهف ، وذهب كلاهما الى مقهى من مقاهى « بلبيق » . رغم أن أحدا منهما لم يكن ينوى ذلك ، فلما جلسا مدبرين وجهيهما الى الشارع الصاخب الاغبر ، ظلا صامتين لايقولان شيئا . هما الآن فى ساعة متأخرة من المساء . ظلال البيوت تزداد طولا على أرض الشارع . ان شيئا مرهقا يجثم على صدر هذه الامسية من أماسى آب . وكان حمدوش يتفرس فى كل مايجرى ، بشراهة ، وقد صالب ذراعيه على صدره .

قال بلهجة غير مألوفة فيه :

ــ ان المرء ليخجل من نفسه فى بعض الاحيان .

فالتفت اليه عمر على مهل . فتابع حمدوش يقول .

ــ الصبر شىء لا أستطيع أن افهمه . اننى آخذ فى الارتعاش والصراخ لأتفه سبب من الاسباب .

كان حمدوش يتكلم محملق العينين ، ثم اذا به يضحك فجأة .

ــ هل تريد أن أفضى اليك بأمر ؟ اننى أشعر أحيانا كأننى وحيد فى هذا العالم ، وكأنه لا وجود لاحد من الاحياء غيرى ، فأصبح عندئذ انسانا لايطاق ، اننى أضيق ذرعا بنفسى . لعل هذا يرجع الى مرض بى .

قال ذلك ونظر الى رفيقه من جانب .

ثم تابع يقول بلهجة هى بين المرح والجد ، لاتدرى الآن هيئة عمر قد طمأنته أم لان مزاجه فى ذلك المساء كان يدفعه الى أن يفضى بذات نفسه أكثر مما عهد فيه .

ــ على كل حال ، هناك شىء ليس على مايرام ، لا أدرى أين . لماذا أنت صامت ؟

ــ افكر فيما تقول .

وكان عمر يفكر حقا فى اقوال الاحمر ، فانصبت عليه نظرات حمدوش قلقة قلقا مبهما . قال له عمر :

ـ انى لا اصدقك .

ـلاتصدقنى ؟ انت على صواب .

الحق أن عمر لايستطيع ان يقول ما الذى كان يشعر به أثناء اصغائه الى حمدوش وهو يفضى بذات نفسه . لقد كان يحس بضباب كثيف يجلل ذهنه .

أن طيوف المارة فى الشارع تسود وتستحيل شيئا بعد شيء الى ظلال تتحرك . فقد هبط الليل .

فلما فرغ عمر وحمدوش كأسيهما ، نهضا ، ومضيا يمشيان فى المدينة .

كان الاحمر قد طلب الى عمر ان يوصله الى بابه ، فوافق عمر على ذلك .

ـ طيب ياحمدوش .. هبك قتلت واحدا ، بل هبك قتلت عددا .. فما تصنع بعد ؟

ـ ماينبغى أن تفكر الان فيما سيحدث بعد . كيف لاتفهم هذا ؟ ذلك امر نفكر فيه بعد . أما الان فيجب أن نعمل .

وانتفخت شفتا الاحمر واتسع منخراه . ثم انفجر صوته على حين فجاة حارا خافتا يقول :

ـ يجب أن نكون رهيبين ، لا بمظهرنا فحسب ، بل بطبعنا أيضا . يجب أن نكون رهيبين ويستوى بعد ذلك ان نغلب او نغلب .

قال ذلك وقد شحب وجهه ، ولكنه أردف يقول وقد هدأ قليلا :

ـ يجب أن ننهى هذا الطراز من الحياة التى عشناها الى الان .

كان عمر لايستطيع أن يحول نظره عن رفيقه ، ولا ان يقف الانفعال الذى استبد به . وتناول عمر يد الحائك ، فهزها وهو يقول له :

ـ أنت أيضا انسان يعيش على حلم .

ولكن حمدوش كان قد بلغ من الاضراب انه لم يسمع كلماته . وما لبث عمر أن تركه .

وفيما هو يسير فى الظلام ، كان يترامى اليه صوت الاحمر صلفا وساخرا سخرا غريبا فى آن واحد :

ـ يجب أن نفعل شيئا ، ليس يجدينا الا أن نفعل شيئا .

كانت الشوارع تخلوشيئا بعدشيء ،وكان قلب عمر، كهذهالشوارع يتسع للخوف والقلق أكثر فأكثر . وقال لنفسه فجاة : ان حريته ملك له ، وأن عليه أن يتصرف فيها على النحو الذى تمليه عليه ارادته

بعد أن سافر عكاشة ، اختفى حمزة أيضا اختفاء لم يعرف سره احد . وقد انقطع حمدوش عن المجيء الى الورشة منذ يومين ، فقرر عمر ، فى صباح هذا الاحد ، أن يذهب الى بيته ليراه . ان قلقا لايفهم قد قام فى نفس عمر . ان عمر لايعرف لماذا استبد به هذا القلق . انه لايستطيع ان يقول لماذا سبب له حمدوش هذا الهم المباغت .

لم يكن وضع الاحمر وضعا بسيطا ، ولا كانت أقواله كذلك . انه يجذب وينفر ويثير ويجرح . غير أنه كان ، بحكم السن ، أقرب هؤلاء الحائكين الى قلب عمر . وبعد أن سافر عكاشة ، ازداد عمر اقترابا منه حتى لقد أصبح له عليه نوع من التأثير يشبه السحر . ان قوة جاذبية لاتعليل لها كانت تحمل عمر الى السعى الى صحبته . لاشك أن فى حمدوش شيئا متوحشا لم يروض ولم يستأنس .

الصيف يسطع على المدينة ، والهواء أنسام خفيفة ، والسماء السكرى تسكب دفئا باهرا . ذهب عمر الى تلك الاحياء الدنيا التى يضغط فيها المرء بغير انقطاع ويصدم وتحمله امواج المارة . ان فى كل ركن من الاركان متسولين يئنون ، فهم تارة فرادى وتارة جماعات ، وتارة ضائعون فى زحمة الناس ، ولكنك تعرفهم دائما من مشيتهم المتلمسة . من ذا الذى كان يسمع ضراعاتهم ؟ ان صوتهم يغور فى الجلبة فيما يصل الى الاسماع . غير أنهم يصرون على الصراخ فى غير يأس .

وفيما كان عمر عند تقاطع شارعين لمح شرطيا وامرأة يحيط بهما عدد من الاشخاص .

كان الشرطى يقول للمرأة ، بصوت يحاول أن يجعله مقنعا :

ـ خير لك أن تعودى الى بيتك . عودى الى بيتك .

وكانت المرأة ترتعش ، ويزداد كلامها حدة شيئا بعد شيء .

ـ انهم جميعا سواء حين يكون الامر امر اقتياد رجالنا الى السجن . لقد اعتقل زوجى هو وواحد آخر .. والان يطلب الى أن أعود الى بيتى .

صرخ الشرطى يقول :

ـ عودى الى بيتك . وأنتم ، هيا أفسحوا الطريق .

فهدأت المرأة روعها ولكنها صمدت ولم تذهب . وظلت تتكلم ، سافرة عن وجهها أمام جميع الرجال ، وهى تتحدث الى الجمهور الذى كان يتجمع من تلقاء نفسه استجابة لنداء الشقاء .

وأزاحت المرأة حايكها ، وأخرجت يدها تشير بها الى الشرطى وتقول :

ـ هذا الرجل يزعم انه واحد منا ، يزعم انه أخ من اخوتنا ، فيا أيها الناس الطيبون هل يستطيع احد مما يلبسون هذا اللباس العسكرى أن يظل يزعم لنفسه انه واحد منا ، انه أخ من اخوتنا ؟

فتقدم الشرطى وعاد يقول بصوت رجل من رجال السلطة :

ـ ابتعدوا .. انكم تسدون الطريق العام .

فتفرق الناس ، وأخلوا المكان ، فما عـــاد الشرطى الى وراء حتى أطبق السد البشرى مرة أخرى .

فلما رأى الشرطى ذلك رجع اليهم وقد جحظت عيناه ، واخذ يحرك يديه قائلا :

ـ انقضت ساعة وأنا أحاول أن أردكم الى الصواب . اما من سبيل الى ردعكم ؟

فلم يتحرك أحد من مكانه . وكان الحشد يضم من النساء المحجبات والاطفال مثلما يضم من الرجال . ان واحدا من هؤلاء الرجال ، وهو قروى فيما تدل عليه هيئته ، كان مستندا الى عصا ، يراقب فى هدوء ، وهو على هذا الوضع ، ذهاب الشرطى وايابه ، فتقدم منه الشرطى وقال :

ـ ماذا تعمل هنا ؟

فنظر الرجل الى الاخرين وقد ظهرت فى وجهه علائم الدهشة ، ولكنه لم يتحرك من مكانه ، فعاد الشرطى يسأله :

ـ ماذا تعمل هنا ؟ لعلك تشتهى أن أرمى بك فى السجن ؟

ـ ارم بى فى السجن ان شئت . انا انظر .

فصمت الشرطى .

كان القروى ، ذو الوجه المعبر والهيئة الحازمة ، قد وقف مباعدا قدميه ، ولا تزال يداه وراء ظهره .

سأله الشرطى :

ـ تريد أن أرمى بك فى السجن ؟ ماذا جرى لعقلك ؟

وكانت المرأة تتكلم عن شقائها الى المحتشدين بلهجة الحديث العادى المألوف .

فعاد الشرطى يسأل :
ـ مالكم تسمرتم هنا ؟ لماذا لا تنصرفون ؟
قال الرجل الذى كان يبدو عليه أنه قروى :
ـ نحن جميعا اخوة .
فقال الشرطى يوافقه :
ـ صحيح .
فهتف صوت بعيد يقول :
ـ هه ! انه يتذكر أصله !
فقال الشرطى متذمرا :
ـ يوشك من يسمع كلامك أن يظن أننا أبالسة .
فأجابه الرجل :
ـ أنت شرطى .
فقال الشرطى :
ـ طبعا أنا شرطى .
واضاف وهو يتجه بكلامه الى الجمهور :
ـ لابد لى من القيام بواجبى .
فتدخل أحدهم يقول :
ـ دعنى اذكر لك هذا الامر ذكر أخ لاخ : ان أخا طيبا مثلك هو الذى شق راسى ذات يوم . لماذا ؟ لان الوقت المحدد للباعة المتجولين كان قد انقضى ولم أنصرف بعد مع خضرى .
ـ ماذا بك حتى تقول هذا الكلام ؟ اننى لاحسن صنعا اذا هويت عليك بيدى . هيا اذهبوا . يجب ألا يعرقل المرور .
وكان الحشد قد ازداد كثافة . والناس لا يزالون فى امكنتهم ينظرون الى المرأة وينصتون لحديثها .
قال الشرطى :
ـ وبعد ؟ مابكم جميعا ، هه ؟
فاذا بصمت كصمت الموت يخيم ، بعد هذه الكلمات ، على الحشد المظلم الذى لا صدع فيه . وعندئذ سأل الشرطى بصوت خافت :
ـ ماذا تريدون ؟ هذا مورد رزقى ، أن لى ثمانية أطفال .. فهل تلوموننى ؟
فقال القروى بعد لحظات :
ـ دعوه . اذهبوا فى سلام .
فابتعد بعضهم يخلون السبيل للآخرين . وظهرت فى وجه الشرطى ابتسامة شكر .

بعد الشوارع المزدحمة والجمهور الصاخب ، يظهر الصمت هنا على حين فجأة . يا للهدوء المباغت فى هذه الازقة الضيقة المتعرجة ! الشمس تلهو على البيوت الشائبة الهرمة التى يرتفع بعضها فوق بعض ، والهواء الشكس يلهو تحت كشش العشب التى تزين بريشها ظاهر الجدران . وليس للجدران من منفذ يطل على الخارج غير المداخل العميقة التى يدلف اليها الداخل على درجة او درجتين فى أكثر الاحيان . والابواب ذات المقارع ثقيلة ، فلولا انها تظل فاغرة فى الليل والنهار على السواء لما أمكن الوصول الى داخل البيت .

وكأن حياة السكان (الأحاديث ، وأصوات النساء ، وايدى الهاون التى تدوى كالأجراس) انما تطل على عالم آخر .

تلبث عمر عند بناية قديمة فسمة ، فاجتاز مدخلها الكبير . ثم دفع بابا صغيرا معلقا فى زاوية على مسافة ثلاث درجات من الأرض ، وأخذ يصعد السلم الحلزونى الضيق ، المظلم جدا ، الذى افضى به الى مسكن صديقه . فلما صار عند العتبة ، صاح يسأل :

— هل هنا أحد ؟

فجاء الجواب :

— هه . هذا أنت ؟ ادخل ياسيدى ادخل !

كان الصوت هو صوت حمدوش المازح . فما ان وضع الفتى قدمه فى الغرفة حتى بهرته الشمس التى كانت تدخل اليها من نافذتين . كان حمدوش مستلقيا على فراش مسطح كالرغيف ، وهو مرتد ثيابه ، غير انه عارى القدمين ، فلما رأى صديقه نهض وفى عينيه ابتسامة ، وأخذ يدس قدميه فى نعليه .

الغرفة العارية كل العرى مبيضة الجدران . وفوق فراش القش يتدلى معطف مهترىء لا لون له ، معلق بمسمار . وفى ركن من الغرفة ينام صندوق خشبى على جنبه ، كاشفا عن سخان صغير يشتعل بالكحول ، وابريق منبعج لغلى الشاى ، وزجاجة ، وفنجان وصحن .. وعلى الكرسى ترقد باقة طرية من نبات النعناع فى قدح ماء . وليس فى الغرفة شىء آخر .

كان قد نهض حمدوش . قال :

ــ جيد هذا المسكن .

ثم اخذ يتمطى ، واضاف بصوت فيه تثاؤب :

ــ هو جيد فى الصيف خاصة . اما فى الشتاء ... بررر ..

وطفق يهيىء الشاى . كان عمر الذى لم يفتح فمه بكلمة ، قد اقترب من احدى النافذتين ، وأخذ ينظر الى الخارج : ان المرء لايرى الا السطوح المجاورة ، فليس البيت عاليا . اما السماء ، فما كان اروع صفاءها فى ذلك الصباح !

غاب حمدوش وعاد بعد دقائق يحمل بيده خبزاً فرنسيا وضعه على الكرسى ، ثم مضى يرمى ماء الكأس من النافذة ، وكان ابريق الشاى قد اخذ يغلى ، فصب فى الكأس شيئا من السائل الاحمر وذاقه ، ثم أعاده الى الابريق ، وأخذ يحرك الابريق تحريكا قويا وهو يشتم ويسب :

ــ كفى سفالة . كفى رذالة ...

وعاد يصب الشاى فى الكأس حتى ملأها ، فقدم الكأس الى عمر ، اما لنفسه فقد ملأ الفنجان الذى كان فى الصندوق .

ــ هل الشاى طيب ؟

وكانت شفتا عمر على الكأس ، فهز رأسه يؤكد أنه طيب ، فسر حمدوش بذلك : وابتسم ابتسامة مشرقة .

ــ لو قلت غير ذلك لسكبت الابريق كله على رأسك .

قال ذلك وقدم للصبى قطعة من الخبز ، فرفض الصبى أن يأخذها رغم الحاح الاحمر .

ــ ألست جائعا ؟

ــ لا .

واستمرا يشربان الشاى . ان حمدوش يأكل مع الشاى خبزاً . والاثنان صامتان لا يقولان شيئا ، ولكن كلا منهما يرقب ما عسى أن يقول صاحبه .

رشف حمدوش رشفة صاخبة من الشاى وراء لقمة الخبز التى دسها فى فمه بشراهة جائع ، ثم دمدم يقول :

ــ انك لست بالفتى التافه ، ولكن خيالك جامح فى بعض الاحيان .

ــ كيف ؟

ــ لا أستطيع أن أشرح لك ذلك ، ولكننى أعرفه . انك تسلك سلوك من يحس ان الناس ضائعون وانه لم يخلق على هذه الأرض الا

ليشاركهم آلامهم .

قال حمدوش ذلك ونظر الى جانب كأنه يفكر فى شىء ما . ثم اضاف :

— كذلك كان عكاشة . . .

— هل سمعته يقول شيئا عنى ؟

فأجاب حمدوش بغير تردد :

— كان يعتقد انك انسان عانى من العذاب اكثر مما عانى غيره . وانك لا تزال تتألم أكثر من غيرك لانك ارهف احساسا من غيرك

ثم قال وقد علت نبرته فجأة :

— وعكاشة أيضا كان يتألم للاخرين أكثر مما يسألونه أن يتألم لهم . كان يحب ان يواسى . والمواسون خادعون .

واعترف يقول بصراحته الخشنة !

— وطبعا لم يمكن تصديقه .

وعاد بمضغ الخبز ويشرب الشاى .

— لم يكن يعاشر النساء . كان طاهرا . وكان يحب النظام . كان طيبا . . هذا اسراف .

ومن العجيب أن حمدوش كان يتحاشى أثناء كلامه ان ينظر الى عمر ، غير انه ظل مع ذلك يراقبه بطرف عينه . استغرب عمر انه ظل طوال المدة الماضية لا يلاحظ ان للأحمر طبيعة ثانية يخفيها ، واحس ان حديثه اليه على انفراد يكشف له الآن عن هذه الطبيعة .

ونسى مع ذلك أن يسأله عن سبب غيابه خلال الايام الاخيرة .

ولكن حمدوش تابع يقول :

— ليس الامر أمر شفقة على الناس . ان الناس لا يسألونك أن ترثى لحالهم وأن تشفق عليهم . أنت تريد لهم الخير ، ولكنهم الى العدالة انما هم ظامئون .

صعق عمر . وقرب حمدوش وجهه من الفتى ، وقال مؤكدا فى اقتناع :

— ميل سيىء . ثم تصور النتيجة التى يجنونها من هذا . ان هذا لا يرفع عنهم ذرة من البؤس الذى هم فيه . والا لكان الامر سهلا مفرطا فى السهولة .

— أنت تكره الناس .

— بل أريد لهم أن يتعلموا كيف لا ينشدون الاسعادة واحدة . الحرية

— هناك السعادة بالحياة . . بالحياة . . بمجرد الحياة .

— كلام .

ـ ولكن جميع الناس يرغبون فى هذه السعادة .

ـ كل هذا لا روح فيه . وانما ينبغى للانسان ان يتعلم الشعور بالحرية من جديد . أما الظمأ الى الحياة فانه يعود فينشأ بعد ذلك

ـ ما عليك الا أن تفتح عينيك وترى ...

فانفجر حمدوش ضاحكا .

ثم قال وهو يضرب الجدار بقبضة يده :

ـ العالم قاس . وجميع الذين يتطلعون الى أفكار رفيعة كريمة سيتحطمون على صخرته . وما ينبغى ان نعجب اذا نحن رأينا الارهاق يدب فينا من قبل أن نبدأ النضال .

نفذت أقوال الأحمر فى قلب عمر نفاذ السكين .

وأضاف الاحمر يقول :

ـ ولا تنس بعد ذلك ان اخوتنا أوتوا القدرة على اعتياد كل شيء، وان مبائسهم نفسها أصبحت لا تؤثر فى نفوسهم

ـ لا ادرى ... ولكننى ارى أن الأصح من ذلك أن يقال انهم خجلون منها ، فهم لا يتحدثون عنها . انهم يخفون آلامهم .

ـ لا ... هذا غير صحيح . ان قلوبهم ميتة .

ـ يجب ايقاظ قلوبهم من سباتها .

ـ ما يجب انما هو : الكره ، القسوة .

ـ هناك أناس يساعدون غيرهم على أن يصبحوا خيراً مما كانوا .

ـ لعلك ستصير من هؤلاء .

ـ ربما صرت منهم . لم لا ؟

ومرة أخرى أخذ حمدوش يضحك ، فجمد عمر .

ـ اذا أردت أن تجر الناس ، كان عليك أن لاتدع لقلبك ان يرق لاناتهم . انك اذا اتفق أن أوليتهم صداقتك ، لم يخشوك .

ـ أنت تثبط العزيمة .

ـ الأمر كذلك ، فلا أنا ولا انت لنا فيه حيلة . منذ وجدت فى هذا العالم اسمع اناسا يدعون الى الرحمة وحب البشر .... وما زلت الى الآن أسمعهم ، الى هؤلاء الواعظين ... ولكننى لا أرى ان البشر قد تحسنت أحوالهم .

كان عمر يصغى صامتا . لقد بدأ منذ الآن ييأس من حمدوش .

ولما خرج من عنده ، احس بقلبه يفيض ضعفا . وقد سأله ، وهو يودعه ، عن سبب انقطاعه عن العمل ، فأجابه الأحمر بقوله :

ـ لم اشأ أن اذهب .

- ٨ -

ما ان اخذ المصنع يتحرك فى ذلك الصباح حتى استأنف حمدوش انتقاداته المرة . قال :

– لا يصدق المرء مدى ما تتصفون به من جبن ، حتى ليتساءل أهو امام افراد يرغبون حقا فى شىء أم هو امام افراد لا يعنيهم حتى مصيرهم .

واخذ يكيل الهجاء لرفاقه ، ويضطرب ، ويشتم . كانت الالفاظ تتشبث بحلقه وأسنانه ولسانه ، ولا تريد أن تتركها .

قال شول مازحا :

– أرنا أولا ما أنت قادر على أن تفعله ، ثم ننظر فى الامر .

قال عمر لنفسه . « اذا أراد المرء ان يجتذب الى صفه الآخرين ، كان عليه ألا يغرقهم بوابل من اللوم والتقريع . أنهم يفهمون أن حياتهم حياة سيئة فما هم بالعميان ، وانهم ليلومون أنفسهم بما فيه الكفاية ، وانما ينبغى أن يبرهن لهم على صداقته وان يقدم لهم شرحا مقبولا » .

وتذكر سراج ، وتذكر عمالا آخرين غير سراج . انه يدرك الآن أن لغتهم يمكن ان تبدو لغة اجنبية فى نظر حمدوش ..

أما الأحمر فهو يفحم زملاءه ، ذلك كل ما كان يستطيعه ، ذلك كل ما كان يجيده . لم يحاول مرة واحدة أن يشد ازرهم وان ينعشهم بكلمات سمحة كريمة . فكلما حاول اقناعهم ازدادوا برما بأقواله . وكان يمكن أن يصلوا من ذلك الى اعتباره ألد أعدائهم لولا انهم يرون فيه « اراجوزا » وهب القدرة على الكلام .

ولم تزدد الحال الا سوءا يوما بعديوم . أصبح حمدوش يسترسل فى أحاديث قاتمة مفككة ، ويتكلم بألفاظ موجزة . انه ما ينى يحل ازرار سترته ثم يعقدها ويهتز ويضطرب كمن يريد أن يتخلص من حمل ثقيل . وان فى نظرته أثناء ذلك من الالم والزيغ ما يولد فى نفس عمر افجع التنبؤات .

قال ذات مرة وفى صوته سخر :

– معذرة .. ليست المسألة ان نشفق على الشعب أو لانشفق

عليه . انى لانظر الى الناس فارى على وجه عام انه ليس هناك شعب. ليس هناك شعب حقيقى . ليس هناك شعب حين يجمع بعضهم كتلة من الناس ثم يصيح بها قائلا : « أنتم الشعب ، الشعب الذى يصنع كل شىء ، ويعلم كل شىء » . هذا الشعب الذى يجتمع عندئذ ليس الا هراء .

ثم تابع يقول حانقا رهيبا .

ــ الذل ، العبودية ، الخوف ، كل ذلك قد أفسدنا حتى النخاع ، فأصبحنا لا نشبه البشر .

فقال له شول آمرا :

اخرس

فأجابه الاحمر بقوله :

ــ انت لا تريد ان تسمع كلامى لانه يغيظك .

فما كان من شول الا آن قذفه بطلقات من هاجر القول .

فقا الاحمر عندئذ :

ــ هذا أنتم . اننى اعرف ما يحس به من كان على شاكلتك من الناس . واحمر وعرق . وكان الحائكون يصيخون اليه الان أسماعهم بغير ضحك .

ــ انكم لا تنتظرون الا لحظة انقضاض ، غير انكم لا تنقضون الا حين لا يكون هناك أحد يحول بينكم وبين ذلك . حتى اذا لم يكن هناك احد أخذتم تزأرون حتى الموت . انكم تنكوون ثم تنكوون بأحقادكم ومذلاتكم يأيها المهانون . غير انكم لا تفعلون فى أثناء ذلك شيئا يحميكم من اولئك الذين يهينونكم . انكى تقبعون كالبق منتظرين ان يحميكم غيركم حتى اذا جاء يوم اقتسام الغنيمة خرجتم من أحجاركم خروج الحيوانات تجتذبها رائحة جثة . انكم متى استطعتم ان تنتقموا فى أمان ، اصبحتم كالوحوش الكواسر . ألا اننى لا اريد ان ارى افواهكم فى ذلك .

ــ حاذر أن تتجاوز الحدود ، فينتقموا منك فى ذات يوم .

قال حمدوش :

ــ من هم ؟

وأخذ يكيل الشتائم لزملائه الحائكين . ثم قال بصوت محتقن بالاحتقار : اوضار . ان هذا الكهف شر من مجارى الاقذار ، أنه العفن بعينه .

ثم ضرب بطرف سبابته السيجارة المحترق نصفها ، التى كان قد قدمها اليه عمر ، فطارت الى بعيد .

ــ آه ... ما أشد تفسخ المرء فى هذا المكان ! ... اننى فى بعض الاحيان لا ادرى ما الذى يمكن ان أفعله ... يخيـــل الى فى بعض الاحيان اننى لا اتورع عن ان ارمى كل شىء فى الهواء .

كانت أمسية رائقة ، تهب عليها نسمات دافئة ... امسية يقظـة خفية مثقلة بجو من الوقوف فى ختام مرحلة من السـير . الناس يعودون الى بيوتهم . انهم يقطعون الشوارع وهم يحملون تحت الابطين خبزا أو مئونة . ان فى أخشن الوجوه تعبيرا حاداً يرهفها .

وكان الشابان قد صمتا لا يقولان شيئا .

دمدم حمدوش يقول :

ــ آه .. ليت جميع هؤلاء الذين يمرون هناك كـالسـائرين فى نومهم ، ليتهم يريدون ان يستيقظوا ...

وصافح عمر صديقه ، وغار فى الشوارع الضيقة المضاءة نصف اضاءة .

ونام فى تلك الليلة، غير أن فكره لم ينم . كان فكره يكبب شلةمن تلك الشلل المتشرجة المليئة بالعقد التى لا يرى المـرء مثلها الا فى كابوس . وما لبث ان سمع صوتين يتحادثان ، هما صوته وصـوت شخص آخر ، صوته وصوت ظل كبير يحمل انفاس المجهول . ومن عجب ان فى هذا الصوت نبرات تذكره بنبرات الاحمر . وأخـذ الصوت يلهث . ان عمر لا يستطيع أن يفهم هذه الكلمات التىيقذفها ذلك الصوت فى الفضاء . وعندئذ تفجرت فى رأسه الحقيقة . «ان حمدوش يريد ان يعد العدة للقيام باغتيالات ، ويقتضينى بل يأمرنى أن أشارك فى ذلك » . وانقطع الخيط فجأة . واصبح عمر لايسمع الظل . ولامست جبينه ريح بيضاء من ريح السحر .

— ٩ —

سارا فى ممر يصطف على جانبيه صفان من أشجار الجوزالهرمة ومن أشجار الدلب ، على حافة البركة الكبيرة . ان الاشجار التى اخذت تورق تشكل فوق رأسيهما قبة من خضرة كثيفة مهتزة . فلما صارا فى منتصف الطريق جلسا على مقعد .. وكان المساء يوشك أن يهبط .

كانت عينا حمدوش تسطعان ببريق ما ينفك يزداد ، فربما كان مرد ذلك الى الساعة التى هما فيها من النهار . وادرك عمر من ارتجاف شفتيه أن به رغبة جامحة فى معالجة الموضوع الذى كان يشغل باله ، الا أن هناك حائلا يقف الكلمات على شفتيه . قال فجأة وهو يسحق بقدمه عقب سيجارة كان على الارض .

ـ مم تخاف حين أكلمك ؟ هه ؟ مم تخاف ؟ أأنت تسيء الظن بى وتحترس منى ؟

فقال عمر ، وقد ادرك اخفى ما يجول فى خاطر رفيقه من افكار :

ـ ما من أحد يخطر بباله أن يهدم أى شيء قبل أن يوقن من أنه سيحل محله شيئا آخر أفضل .

فنظر حمدوش الى الارض بين قدميه عابس الوجه . ثم رفع رأسه كمن عثر على فكرة فاتته حتى ذلك الحين ، وقال :

ـ ولكن ليس من الشرف فى شيء أن تقول عن أمر من الامور : « اننا لانريده » ثم نحن لا نفعل شيئا من أجل القضاء عليه . ليس من الشرف فى شيء أن نتشكى ، ثم نحن لا ..

ومرت فى تلك اللحظة سيدة ترتدى ثوبا خفيفا من ثياب الصيف ، ووراءها طفل يتعثر فى مشيته ، وهى تتابع خطواته بنظرة تفيض افتتانا .

فلما صارت أمامهما القت نظرة سريعة على عمر وحمدوش ، فاذا بوجهها ينقبض انقباضا غريزيا ، ثم حولت عينيها عنهما ، غير ان عمر أحس بما فيهما من انتقاد قاس .

سأل حمدوش صاحبه بصوت خافت :

ـ أرأيت كيف نظرت الينا ؟

ـ رأيت ، فماذا ؟

ـ أنا يستحيل على ان اطيق هذا . لن ارضى فى يوم من الايام ان ينظر الى أحد هذه النظرة .

قال ذلك وقد علت نبرة كلامه .

ـ انى هنا فى بلدى ، ولاجعلنهم يدفعون ثمن هذه النظرة .

وصمت الاحمر وقد اربد وجهه .

ان ذلك كله يزعج عمر . انه لا يشتهى الآن ان يدخـــــل فى اى حديث . كان يقرأ أمامه ، على الطرف الثانى من البركة ، كلمات كتبت بأحرف كبيرة خرقاء : « السوفيت فى كل مكان » . ان هذه الكلمات المكتوبة يرجع عهدها الى عدة سنين خلت ، وقد سبق لعمر ان رآها هنالك . ولا تزال الى الآن . ان القطران الذى كتبت به قد ابيض . وظل عمر يقرأ هـــذه الكلمات ثم يقرؤها ويقلبها فى راســه ويفكر فيهـا ويحلم .

ساله الاحمر وهو يضرب الارض بقدمه :

ـ ولكن .. أنت .. ما رأيك انت ؟

فصحا عمر من تأملاته ، وفهم أن معنى سؤال كهذا السؤال هو التالى : « أنت .. ماذا تنوى ان تفعل ؟ » .

فتفرس في الاحمر مستطلعا ، فآلمه أن يراه على هذه الحال .

ـ رأيى انك تضايقنى ، وانك لن تقوم بأى عمل نافع ما ظللت تريد أن تمضى الى العراك وحدك ، وانك أيضا لن تجنى شيئا من محاولة جرى اليك بالقوة ، فأنت بذلك تضيع وقتك سدى . اذهب وافعل مايروق لك، ولكن اتركنى وشأنى . ورأيى من جهة اخرى اننى لست أنا محل اهتمامك فى هذه القضية ، فأنا اعلم أنك لا تؤمن انت نفسك بما تقول ، وانك انما تستدرجنى الى الكلام من أجل ان تصل الى شيء من الايمـــان .

ـ مماحك .

ـ قل ما تشاء . لقد سألتنى رأيى فبسطته الك . فلا تضجرنى بعد الآن بأسئلتك . ودعك ، خاصة ، من محاولة جرى اليك ، فذلك جهد ضائع ، وهأنذا قد انذرتك .

كان حمدوش يبتسم ابتسامة خفيفة لاترى ، وقـــد تاه نظره . فاضطرب عمر . أن قلقا خاطفا قد قام فى راسه ، فدفعه عمر عنه . ما عسى يستطيع الاحمر ان يصنع به ؟

غير ان حيرة مبهمة تغزو نفس عمر ، ثم لا تبارحه رغم ما يقوم به من جهد لطرد تلك الافكار من ذهنه .

غمغم حمدوش يقول بهيئة الطفل العنيد :

ـ اسمح لنفسى بأن اعتقد انك ستغير رأيك فى ذات يوم . وستتذكرنى عند ذلك وربما يكون الاوان فى تلك اللحظة قد فات .

ـ دعك من هذا الحزن كله ، اضحك قليلا . الايام آتية .

فقال الاحمر فى خشونة :

ـ يعجبنى ان اكون كما انا .

ونهض .

فنهض فى اثره عمر ، وتابعا طريقهما بحيث يدوران حول الاسوار ليدخلا المدينة .

فلما صارا فى الطريق الكبير غشاهما التراب الابيض الذى كانت تغوص فيه السيارات وهى تجرى مسرعة . هذه ضاحية ترية حافلة

دخل الصديقان المدينة ، فاستقبلتهما الحرارة الخانقة التى تنشرها الجدران الحامية . وهبط الليل .

— ١٠ —

حل تشرين الاول • ثم حل تشرين الثاني • لم ينقص الصيف ، ولا يزال قيظه مشتعلا. استمرت الحياة في الكهف على حالها لم تتغير، المصنع يغوص في الضجر والسأم رغم وفرة العمل ، ورغم الجلبة الابدية التي لاتنقطع • كان حمدوش لايزال يتغيب كثيراً ، وكان ذلك يثير في شول تعليقاته الغضبي •

في يوم الاثنين ذاك ، كان جميع العمال يتحركون صامتين ، غير أن بهم تلك الشراسة وذلك الاعياء المألوفين في كل صبح من أصباح أيام الاثنين • ومرة أخرى لم يكن حمدوش قد أتى •

قال ما حي بوعنان شاتما ، حين مر بالمصنع في منتصف النهار :

— ما الذي جرى له أيضا ؟

فأجابه شول ساخرا :

— كان في قصف ومجون •

لم يصدق عمر هذا • وأمره المعلم في حدة ان يمضي اليه مستطلعا أنباءه فلما دخل عمر الى مسكن حمدوش استقبله صاحبه في حماسة فكأن رؤية الفتى تخفف عنه . وقد لا حظ الفتى منذ النظرة الاولى ما كان فيه صاحبه من اضطراب ، فلم يلق عليه اي سؤال •

نظر عمر الى صديقه. كان حمدوش يسير في طول الغرفة وعرضها وقد وضع على كتفيه معطفه الواسع الكالح ، وفيما هو يذرع الغرفة على هذا النحو كان يلقي على عمر نظرات غير مألوفة • انه بوجهه العابس ولحيته التي لم تحلق منذ اسبوع ، أشبه بسجين . ثم أخرج من جيبه قطعة من مشط ، وتوقف عن سيره ، فجلس على حافة الصندوق الخشبي ، وأخذ يفكك شعره الاشعث العنيد الخصل ، دون ان يولي صاحبه انتباها •

كان الزقاق الصغير المتاخم لمسكن حمدوش صامتا مقفرا حارا • فاذا بهذا الصمت نفسه يخيم في المسكن أيضا ، بينما الاحمر يصفف شعره الكث بضربات صغيرة ، مشعث الرأس كالح الوجه لا تعبر هيئته عن شيء •

قال عمر يسأله :

ـ كيف الاحوال يا حمدوش ؟ لقد سأل المعلم لماذا لم تأت الى العمل ؟

فأجاب حمدوش

ـ مسألة صعبة . هذه أول مرة أرتكب فيها سرقة ...

وضحك . ثم أضاف :

ـ تعوزني العادة .

كان يتكلم كمن يهذى . لم يكن يمزح ، ذلك واضح في قسماته المحمومة .

ـ مسدس اوتوماتيكي . هه ، ما رأيك ؟

وكان عمر يرقبه دون ان يفتح فاه بكلمة .

ـ ولكنني أوشكت ان يقبض على .

كان واضحا أن الاحمر يقول الحق . وقامت في نفس عمر رغبة قوية في أن يتحداه . ولكن لا ... لن يقول له « انه لا يصدقه » ، لأن الحقيقة التي ينتظر أن يسمعها لا يطيق احتمالها .

شيء لم يكن قد فهمه الى ذلك الحين يتكشف الآن لباصرتيه : هو هذا الهوى الجامح الحي المحرق الذي يسكن نفس حمدوش .

ومضى عمر يتكىء بكوعيه على النافذة ، وظل يرقب صديقه صامتا . لايزال الاحمر يفكك شعره الحرون . قال وفي شفتيه ابتسامة ملتبسة :

ـ هوه ! لا تبحث ! ليس السلاح هنا !

ثم انطلق يضحك ضحكة صغيرة متقطعة .

ـ في رأيك انت أن ما فعلته ليس بالفعل المحمود ، أليس كذلك ؟

ولكن عمر ظل صامتا لا يجيب . قال حمدوش وهو مدير اليه ظهره :

ـ قل انه ليس بالفعل المحمود ، اذا كان هذا هو رأيك ...

فحاول عمر ان يجيبه فقال :

ـ ليس هذا ما أفكر فيه ...

ـ فيم تفكر اذن ؟

فشعر عمر بمزيد من الارتباك ، انه يجد عناء كبيرا في استجماع افكاره . قال :

ـ لست ألومك على شيء

ـ ففيم هذا الوجه المكفهر اذن ؟

ـ ستصبح وحيدا ...

ـ هذا لن يهمني كثيرا .

ـ سينصرف الناس عنك .

فحاول حمدوش أن يضحك ، لكنه لم يستطع . ولم يزدد وجهه الا قسوة .

ـ أنت تؤثر الوعاظ ، لقد علموك أن تحب الكلام ياعمر .

ـ ما يدفعك الى قول هذا ؟

ـ أنى أعرف ذلك .

قال حمدوش ذلك وهو منحن قليلا ، يشبه ان يكون وضعه وضع حيوان محاصر .

ـ القول أجمل من الفعل واسهل .

ثار عمر وقال :

ـ انا ذاهب .

فدهش حمدوش . فأدرك عمر عندئذ مافى سلوكهما من غرابة . وتمتم الاحمر يقول بصوت خافت :

ـ لسوف تشكرنى فى يوم من الايام .

وشزر عمر مرة أخرى ، وقد أثقل جبينه بالغضون والتمع بياض عينيه التماع جوف الصدف .

ـ أشكرك على ماذا ؟

ـ ستفهم ذلك فيما بعد .

ثم عادت تلك الابتسامة المتشنجة نفسها فظهرت فى وجهه .

أدرك عمر أنه لم يبق له مايفعله هنا ، فاتجه نحو الباب ، غير أنه القى على صديقه نظرة أخيرة ، وهمت أن تخرج من بين شفتيه كلمة مصالحة ، لكنه حبسها ،وانصرف . ولم يلتفت اليه حمدوش اثناء ذلك .

فلما عاد الى الكهف قال انه لم يجد الأحمر فى بيته . فهتف شول شاتما :

ـ يا للفاسق الذى لا يعرف غير اللهو والمجون !

كان عمر قد فرغ من طعامه ، فنهض يريد ان يذهب الى الصبيين الآخرين اللذين كانا يلعبــان لعبة « الخف » ، بينمـا كانت الجدران والقبة ترجع ضحكاتهما وصيحاتهما ، فاذا به فى هذه اللحظة يهتز اهتزازا قويا من ضربة هائلة بقبضة يد هوت على ظهره ، وتلتها على الفور ضربة ثانية تقطعت من هولها أنفاسه ، ووقع على الأرض من شدة الالم ، فرأى حمدوش يتفرس فيه ، فقال له فى أنين :

ــ أأنت ضربتنى ؟ ماذا صنعت لك ؟

فاذا بحمدوش يبصق عليه . فصاح عمر :

ــ ماذا بك ؟

ثم أطلق من صدره آهة توجع ، وأســند ظهره الى أحد الأنوال ليستطيع أن يتنفس .

فلما رأى حمدوش صامتا ، أعول يقول له :

ــ ماذا أصابك ؟

فاذا بحمدوش يهجم عليه ، ويقبض على حلقه فى وحشية ، وينفخ فى وجهه قائلا :

ــ لأرسلنك الى القبر .

واخذ يهزه هزا بلغ من القوة ان الفتى احس بعظام عنقه تقضقض بين يديه . وأراد ان ينتزع نفسهمن قبضة يده ، فاذا بالأحمر يهوى بها على وجهه ، فى لطمة طاش لها صوابه ، واخذ الدم يسيل من فمه .

ــ تريد ان اقول لك ماذا صنعت ؟ الصــوف الذى كان عليك ان تهيئه لى ، أين هو ؟ اتسخر منى ؟ لاقتلنك

قال حمدوش ذلك وهو يلقى عليه نظرات هاذية .

واحس الصبى بمذاق الدم فى فمه حامزا ، فمسحه بيده على نحو آلى دون وعى ، واقعى يبحث عن شىء عسى ان يعثر به على الارض ثم نهض وفى قبضتى يديه قضيب من حديد ، رفعه فوق رأســه ملوحا به ، وصاح يقول لحمدوش :

ــ اقترب منى ان استطعت ياحمدوش .

كان عمر يسمع خفقان قلبه ضربات قوية متباعدة ، وكأن تنفسهقد

وقف . ان بردا كالثلج قد استولى عليه .
امتقع وجه حمدوش . وقال :
ــ أترك هذا .
ثم أختنق صوته .
حدث عمر نفسه قائلا : « لقد خاف » ، ثم هوى بالقضيب الحديدى الثقيل بكل ما أوتي من قوة ، لا يعرف اين تقع الضربة . فاذا بحمدوش يئن أنة طويلة غريبة ، ويتهاوى على الارض تحيط به مكاب الغزل وتوثقه .
فقفز شول عن نوله ، ووثب على عمر يمسك به من الكتفين ، وصاح متلعثما :
ــ يا شقى ، يا شقى ، يا شقى ...
لم تسعفه قريحته بكلمة أخرى ، غير أنه كان كلما نطق بحرف من هذه الحروف لطم الصبى على رأسه لطمة ، وقام الاحمر فى هذه اللحظة ، فاذا هو يمزق القميص الذى كان يكسو لحم عمر .... يمزقه بحركة واحدة من أعلاه الى أدناه .ثم دق وجهه بقبضة يده ، وهشم انفه فأخذ الدم يسيل منه ، وظل يضرب ويضرب .. كانت عيناه عينى مجنون . وكان فى عينيه من الظمأ الواضح الى القتل ما جعل الفتى يصيح بالحائكين وهو يحس بالخطر احساسا عجيبا:
ــ والان ، اقتلانى ، اقتلانى .
كان مقتنعا بأن كل احتجاج لايجدى ،وان كل حركة يحاول أن يقوم بها دفاعا عن نفسه لن تنفعه . وفكر فى عكاشة فتذكر هذه الفكرة من افكاره : « فى بلادنا ، اذا استطاع الانسان ان يحيا ، وان يبقى حيا ، فقد انتصر » .
وصل ماحى بوعنان دون ضجة ، ويداه مضمومتان فوق بطنه . ان الانوال واقفة ، كلها .
وان وجوه الحائكين مخيف منظرها . وكان المعلم قد هبط درجات السلم قبل ان يلاحظ احد من العمال حضوره . فوقف فى وسط المصنع . وأخذ ينظر الى العمال واحدا بعد واحد وهو يقلب ابهامى يديه . فلم يخطر ببال أحد ان يوجه اليه تحية .
وكر حمدوش على عدوه مرة أخرى بغريزته ، فلما رأى ماحى بوعنان سقطت يداه ، وجاء المعلم اليه يملأ المكان كله ، واخذ يكيله بنظرته . وهرع عمر ، مرتعشا دامى الأنف والفم ، فاقترب منه ونمسك بذراعه . انه لا يسمع شيئا من الكلام الذى يقال ، كأنه أبله .

سأل ماحي بوعنان وهو يميل براسه الى جهته :
ـ هو ؟
فقال له شول :
ـ نعم .
فأمسك المعلم بأذن الصبي ففرصها ، وهو يتمايل على نفسه ثم جعل يجره الى أن وصل به الى أول الدرج . لقد هدأت الجلبة أثناء ذلك ، واستأنفت الانوال حركتها الصماء .
قال ماحي بوعنان لعمر :
ـ اذهب ... ولاترني وجهك في هذا المكان بعد اليوم .
لم يعرف عمر كيف صعد درجات السلم ، ولا كيف اجتاز الشارع قدما حتى وصل الى عين الماء . لقد لاحظ أثناء خروجه عددا كبيرا من المستطلعين قد ازدحموا امام الكهف واضعين وجوههم على مربعات الشباك ، فلما رأوه حاولوا أن يسألوه عما حدث في الكهف ، ولكنه افلت منهم .
حتى اذا وصل الى عين الماء أخذ يغسل وجهه . وبصق ، فاذا بسنين تسقطان من فمه . فشعر حين رآهما بحنق شديد ، وصعدت الدموع الى عينيه .

ما ان طلع الفجر حتى كانت الجارات تتفرق فى الفناء ، أو تستقر عند عتبات الغرف ، او تضطرب فى المطبخ المشترك تغسل الاطباق التى بقيت من الليلة البارحة . ان جلبة آخذة فى التزايد تصحب هذه اليقظة ، فالاحاديث تكثر والاطفال يغزون الاروقة عصابات ، ونشاط طافح يجرى فى الدار الكبيرة من مكان الى مكان ، وسط صمت الساعات الاولى من النهاروهدوئها .

النساء منهمكات فى أعمالهن ، وقد شمرن اطراف غلائلهن وعلقنها بالحزام ، وأخذت سراويلهن العريضة تصطفق بين السيقان . انها لمخلوقات عجيبة ، لا تعرف الراحة ، ولا تنقطع عن الصياح لحظة الا لتضرب أولادها ، ثم تذهب وتجىء فى طول الدار وعرضها مشغولة مترثرة .

كانت جهود عمر متركزة كلها على رغبة واحدة : هى أن ينام . كان يصغى الى أحاديث ، ويتعرف اصواتا ، ويسمع ضجات يسند الى كل منها معنى . وتبعثر منذ تلك اللحظة فلم يمكن أن يغمض له جفن .

ان دار سبيطار لم تتبدل . غير انه اليوم يعرف قيمة الاشياء التى تجىء وتذهب والاشياء التى تبقى .

– لقد نام وهو صبى ، أما الان فانه لا يصحو طفلا بل رجلا يقابل قدره وجها لوجه .

فى تلك الليلة البارحة ، حين رأته امه عينى يدخل البيت وهو على تلك الحالة التى يرثى لها ، أصابها فى أول الامر رعب ، فاذا هى ، من قبل ان تعرف ماذا حدث ، تأخذ تولول ناحبة نادبة .

– هاهاى . هاهاى . بنى . ماذا صنعوا يا بنى .

فلما قص عليها عمر الخبر ، قالت تحلف :

– والله لاقلعن عيونهم .

وأخذت تتوجع وتتأوه فى عنف .

– ابق هنا . لسوف أريهم كيف تكون الاساءة الى عينى وابنها .

وظلت عينى تصغى الى كلام ابنها حتى فرغ من حكاية القصة كلها ،

فهرعت عندئذ الى الرواق الذى يطل على الفناء ، فصاحت تقول لجميع سكان المنزل :

ــ أنظروا أيها الناس ماذا فعل أعداء الله بابنى .

***

نهض عمر وخرج ، فلم تقل له أمه شيئا حين رأته يذهب .

أراد ان يتجول فى الشوارع كما كان يتجول من قبل . كان يتراءى له حتى ذلك الحين ان كل شىء فى الحياة واضح ، وان كل شىء فى الحياة بمكانه . غير ان هذا النظام الاعلى قد اضطرب الان . أهو اضطراب فى نفسه ، أم فى المدينة ، أم فى العالم كله ؟ انه لا يعرف ذلك . كل ما يعرفه هو ان الامور ليست كما كان يظن . كان فى صدره شىء ينقبض . انه يسير وهو فيما يشبه الحلم . حركة الشوارع تصل اليه ضعيفة ، ولكنها فى الوقت نفسه تطيش صوابه. انه يسير فى حذر كأنما هو يخشى أن تحل كارثة من الكوارث على حين فجأة .

جمهرة المتسولين الغائرة وجوههم ، الذاوية عيونهم ، لاتزال هى نفسها تملأ المدينة . انهم لا ينتظرون شيئا من أحد . يسيرون ثم يقفون ، ولا يبدو عليهم انهم يكترثون بما يفعلون . وهم يتكدسون فى بعض الاماكن تكدس أناس يحيطون بميت ، ويلقون على سكان المدينة نظرات عميقة ساكنة .

تأمل عمر العياء الذى يسمرهم فى الارض . لاحظ القلق الذى يجوف خدودهم ، على أنها جوفاء ، ويسن أعراف أنوفهم . وشيئا فشيئا فهم . أين ذهبت القوة التى كانت تتدفق فى كثير منهم يوم كان حميد سراج يتحدث اليهم فى مقر الشارع الواطىء ؟ وتأملهم عمر . ماذا حدث اذن ؟ وتذكر المصنع ، والحائكين ، ثم صرف عن ذلك ذهنه . وفكر مرة أخرى فى حميد سراج الذى لايزال سجينا فى أحد معسكرات الاعتقال ، هناك فى الجنوب .

وفى هذه اللحظة وقع بصره على حلقة من المتطلعين المبهوتين .. ان امرأة فارعة القامة نحاسية اللون مستطيلة الوجه كانت جالسة فى وسط الرصيف لا تتحرك ، وقد بلغت أسمالها الرثة من القذارة ان الناظر اليها يحسبها خارجة من حمام وحل ، وعلى رأسها وكتفيها منديل ملطخ لايقل سواده عن سواد سائر خرقها . ان نظرتها تثير فضول المارة كأنها صرخة . فالحشد الصغير يحيط بها دون أن ينطق أحد بكلمة .

وقف عمر على أصابع قدميه متطلعا ، فرأى المرأة كائنا صغيرا مقمطا برثث وسخة راقدا على الارض . كانت المتسولة واضعة احدى يديها على فمها ، وهى ساكنة لا تتحرك . وكان الرجال والنساء والاطفال ينظرون اليها ، خرسا لا يتكلمون . ثم اهتز راسها بحركة خفيفة ازاحت منديلها قليلا ، ومالت الى الامام ثم قالت بصوت عذب استغربوا جميعا أن يصدر مثله عن هذا التمثال المقدود فى خشب :

ـ الله يحميك يا ابنتى الصغيرة ، لم يحن أجل الموت بعد .

وغمرت الرضيع بنظرة حزينة . ثم هزت راسها ومدت يديها الى الطفلة فتناولتها ، واستغرقت عندئذ فى تأمل الوجه الصغير . كان واضحا أن هذه المرأة تجهل أن جمهورا من الناس يحيط بها ويرقب حركاتها ويلتقط كلماتها . ووضعت شفتيها على الشفتين الصغيرتين البريئتين ، ثم أرقدت حملها البارد الاصفر على الارض أمامها حيث كان . وفى هذه اللحظة ألقت على ما حولهـــا فجأة ، وهى تضغط على خدها باحدى يديها ، نظرات تائهة . واخـــذت عندئذ تتأوه تأوهات قصيرة ولكنها ما لبثت أن صمتت ، كأنها هى قد غيرت رأيها . وعادت فتناولت يدى الطفل المنطويتين فربتت عليهما فى حنان . وظلت على هذه الحال بضع دقائق لا تفعل غير ذلك . وظل شىء من اليأس يقرأ فى وجهها خـلال لحظة ، غـــير أن السحابة ما لبثت أن تبددت ، فلم يبق منها أثر . ودمدمت المرأة تقول :

ـ ستفهمينني يا بنيتى حين تبلغين من العمر ما بلغت .

وظلت تكلم الرضيع المتثلجة مــدة طويلة ، فى رقة وبلاهــة .
لم يستطع عمر أن ينتزع نفسه من هذا المشهد الا فى عناء . وردد يقول دون ان يعـرف السـبب الذى يدفعــه الى ذلك : « فات الاوان . فات الاوان » .

وما كاد يخطو بضع خطوات حتى دوت فى الشارع صرخة ليس فيها شىء انسانى . فأخذ الناس يركضون .

ـ ١٣ ـ

جثم الارق فى تلك الليلة على صدره كحيوان مفترس . لم يكن كل شيء قد نام بعد : فمن الشارع لا تزال تصاعد ضحكات وأحاديث ، ومن مسافة بعيدة تترامى الى السمع ألحان شبابة شاكية ، ومن الزقاق الضيق القريب يصل صوت أحد السكارى وهو يحاول أن يكمل غناء أغنية بطيئة حزينة ، ولكن صوته الكثيف الرذل ما ينفك يعود الى كلمات بعينها فيتعتعها فى عناد :

أصبحت وحيداً منفردا
لا تصحبنى الا نفسى .

ويتوقف المغنى عن الغناء بعد الكلمة الاخيرة ، فيحسب السامع من طول توقفه أنه قد عدل عن المضى فى غنائه . ولكنه ما يلبث أن يستأنف ترنمه بعد ذلك ، بتلك الكلمات نفسها ... ان عمر لا يستطيع أن يحصى عدد السنين التى ظل خلالها يسمع هذا الصوت المخمور فى مثل هذه الساعة من الليل . انه محمد شراق يسكر ويجيء يغنى هذا الغناء فى كل مساء :

أصبحت وحيداً منفردا
لا تصحبنى الآ نفسى .

واتسع الصمت . ان كل شيء قد نام الآن . الا هذا الصوت العنيد . انه يظل يتأتى وفى نفسه أمل حزين فى أن يصل من الاغنية الى ختامها . جلس عمر الى مرقده ، وتأمل السماء من خلال الباب المفتوح . ان ضياء هذه الليلة يشبه أن يكون ضياء نهار . ومضى عمر يجلس على الرواق المتاخم للغرفة ، وراح يعد النجوم الغارقة فى بياض كأنه اللبن ، ثم لم يستطع أن ينتزع نفسه من فتنة هذه الليلة الساطعة كل هذا السطوع .

وحدق بعينين واسعتين مغسولتين ، الى الاكتاف الكثيفة من المبانى المنتصبة على مقربة من البيت ، ولكن نظراته سرعان ما عادت الى النبع المترقرق ، السماء ، حيث تصطفق النجوم ، واذا هو يقول مخاطبا نفسه : « لم أعد أدرى من أنا .. »

انقطع شراق عن الغناء ، فهو يتكلم الآن بصوت رصين خافت .

فكر عمر فى عكاشة ، وتساءل أين عساه يكون ، فى هذه الساعة ، ذلك الحائك الذى آثر ان يهجر النول ، وأن يحمل عصا المسافر وجرابه .

وفكر عمر بعد ذلك فى حميد سراج . لكأن صوت شعب بأسره قد سكت ، منذ سجن حميد سراج فى معسكر من معسكرات الاعتقال . أصبح المرء لايرى بعد ذلك الا جماهير خرساء ، خائفة . أصبحت هذه الجماهير على حين فجأة ، تحس بخطر كانت جاهلة به . وازداد حذر الناس .

شعر عمر برعشة تسرى فى جسمه بغتة . ان برودة نافذة قد هبت فى الفضاء . فحمل عمر المخدة التى كان متكئا عليها وعاد الى الغرفة التى تترجع فيها أنفاس أختيه وأمه مطردة هادئة . واستلقى على مرقده وغفا ، تسهر عليه هذه الليلة الراكنة الجميلة .

حتى اذا صحا فى الغد أحس برغبة مفاجئة فى أن يمضى الى صفصف يستحم فى النهر الصغير . انه لم يذهب الى هناك منذ مدة طويلة ، ربما منذ سنتين . فما أشد فرحه بالعودة الى الريف . شهر تشرين الثانى يشعل شموعه فى ذروة السماء . والاراضى الراقدة تهتز فى هدوء ورفق ، خفيفة خفيفة ، كأنها تهم أن تذوب دخانا . النهر يتسع فى هذا الموضع ، ويجرى كسولا تحت ظلال أشجار البطم الكبيرة ، بين كتث الاعشاب المتوحشة . وفى الفضاء ترين طمأنينة رحيبة تخددها ضجات بعيدة تقرع الهواء . ولكن أذن عمر غارقة فى الهمهمة الغامضة ، فما يدرك منها شيئا . لقد رقد على العشب الخضير بعد أن ظل يخوض فى الماء مدة طويلة ، فهو بين الغفو والصحو ، والزيزان تتصايح من حوله فى كل مكان ، فصريرها يذوب فى الفضاء الرنان الذى يغمره ، ثم ينسكب فى أعضائه ، فيخدر شعوره .

واربدت السماء . وعاد عمر الى الماء . وفجأة أشتد ذلك الاهتزاز العنيد الذى كان يقتحم الهواء منذ لحظة ، ثم اذا هو يصبح ضجة تملأ الفضاء . لكأن هذه الضجة تخرج من أعماق الارض . وما هى الا لحظة حتى بدا ان الافق هو الذى يهتز . فوقف عمر فى الماء واصاخ بسمعه ، ثم خرج من النهر بعد بضع ثوان .

فما كاد يخرج حتى رأى سيارة من سيارات النقل عليها جنود تقف فى الطريق على مقربة من النهر ، ثم يثب منها أحد الجنود ،

ويقترب . انه في ريعان شبابه ، هذا الرجل الطويل ، النحيل قليلا ، الضيق الكتفين . وها هو ذا ينظر الى عمر بعينين زرقاوين مبتسمتين . ان في قسمات وجهه تعبيرا عن صراحة كصراحة الاطفال ما تلبث ان تثير في النفس المودة والمحبة . ومما يزيد ذلك التعبير وضوحا هذا الشعر الاشقر المقصوص حول الرأس كله ، الا خصلة متهدلة على الجبين . لاشك أبدا في أنه اجنبي .. ولكن ليس بينه وبين الاوربيين القاطنين في هذه البلاد الا شبه ضعيف . لم يقل الرجل شيئا ، واكتفى بالتبسم وهو يقدم الى عمر لوحا من الشيكولاته مع راية صغيرة عليها نجوم . غير ان رفاقه الذين ظلوا في السيارة لم ينقطعوا عن الجمجمة والصياح فرحين : « هالو .. هالو .. » ولا عن التلويح للفتى باشارات تعبر عن الصداقة . وكان عمر يلاحظهم مبهوتا ويلاحظ الرجل الواقف أمامه ، ناسيا أنه عار كل العرى . تناول لوح الشيكولاته من يد الرجل الاجنبي دون تفكير ، ثم هرع الى الماء وغطس غطسة . وانطلقت على الضفة هتافات ، فجرت السيارة تهدر هديرا يصم الاذان ، وغابت وراء سحابة من الغبار ، تتبعها سيارة أخرى ، ثم سيارات فسيارات ، متشابهة كلها ، محملة جميعها بجنود يلوحون بأيديهم ، وعندئذ ، خلال البرية ، التي يهدر في كل مكان منها ، ويترجع في مكان منها ، الرعد الذي تحدثه أصوات محركات السيارات ، ارتفعت صرخة تقول :

— الا .. مر .. يكان ..

فاذا بقلب عمر يثب من صدره في فرح مجنون . ان املا مستحيلا يمسك بخناقه فاذا حلقه يتشنج واذا هو يحس أنه يهم أن يبكي .

وخرج من الماء ، فارتدى ملابسه ، وعاد يسير في الطريق المؤدي الى المدينة ، جادا مفكرا ، لا شك أن شيئا هائلا قد حدث في العالم . كان يسير بخطا سريعة ، حتى ليكاد يركض ركضا ، وقد انشدت قامته بسروال طويل أزرق ، وسترة ضيقة ، وانتصب فوق جسمه الطويل المهيء للتخلع بطبيعته من قبل ذلك ، رأس حاد تتقد فيه عينان صغيرتان سوداوان . أما جبينه المستقيم المنبسط فكان أشبه بآجرة كثيفة قامت فوق الحاجبين تظللهما كثة من شعر خشن . وكانت أجفانه تصطفق على ايقاع سريع ، وكانت نظرته تقفز من شيء الى شيء آخر ، وكان في وجهه تعبير عن جد يوشك أن يكون قاسيا عنيفا .

تمت

الاشتراك فى روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

هـــذه الـــروايـــة

« النول » هي الجزء الثالث والاخير من ثلاثيـــة الكاتب الجزائرى الكبير محمد ديب

وبهذا الجزء تنتهى روايات الهلال من نشر ثلاثية محمد ديب بعد ان قدمت فى الشــهرين الماضيين الجزء الاول وهو « الدار الكبيرة » والجزء الثانى وهو « الحريق » . وقد احتلت هذه الرواية بأجزائها الثلاثة مكانا بارزا فى الادب الروائى المعاصر كله .

وقد كتب الفنان الجزائرى الموهوب ثلاثيته الروائية باللغة الفرنسية . فالفرنسية هى اللغة التى يكتب بها هذا الاديب الجزائرى البـــارز ، لانه من الجيل الذى تربى فى ظروف الاستعمار الفرنسى للجزائر .

وقد تعرض هذا الجيل لضغط ثقافى عنيف انتهى به الى أن ينفصل عن لغته الاصلية وهى اللغة العربية . ولكن محمد ديب مع ذلك ظل مخلصا للروح العربية الجزائرية فجاءت ثلاثيته الروائية رغم لغته الفرنسية تصويرا صادقا لشعب الجزائر فى كفاحه ونضـــاله ومشاعره الحقيقية العميقة ، واصبحت هذه الثلاثية جزءا من التراث الثقافى القومى للجـــزائر الى جانب قيمتها الكبيرة فى الادب المعاصر كله كعمل أدبى ممتع وراق . وهذه الثلاثية الروائية مترجمة الى العربية بقلم الاديب الكبير الدكتور سامى الدروبى ســـفير سوريا فى مصر . وقد عرف القراء العرب ســـامى الدروبى منذ سنوات بعيدة ككاتب مثقف وواحد من المع المترجمين المعروفين فى الثقافة العربية المعاصرة ، والمكتبة العربية مدينة لســـامى الدروبى بكثير من الاعمال الادبية العظيمة التى اختارها وترجمها ـ بعناية كبيرة ـ الى اللغة العربية . ومن بين هذه الآثار التى اضافها الدروبى الى المكتبة العربية هذه الثلاثية الروائية لمحمد ديب وهى الثلاثية التى يسعد روايات الهلال أن تقدم الجزء الاخير الى القراء العرب وبذلك تكتمل بين ايدينا ترجمة ممتـــازة لعمل أدبى من الدرجة الاولى كتبه فنان عربى بارز فرضت عليـــه ظروف الاستعمار أن ينطق بغير لسان آبائه وأجداده وهو اللسان العربى المبين .

١٠ قـــروش